



النَّهَارُ قَالَ لِي

أبريل 2015

406

الأدب

رواية

تأليف: يورج أكلين

ترجمتها عن اللغة الألمانية: د. عبدالحميد حسين

مراجعة: أ. د. أسامة أبو طالب

الأَبُ



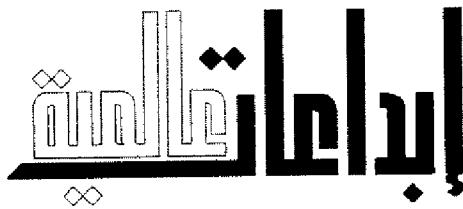
الأب

رواية

تألیف: یورج أکلین

ترجمها عن اللغة الألمانية: د. عبد الحميد حسين

مراجعة: أ. د. أسامة أبو طالب



نشر كل شورى
المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب

الشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. ليلى عثمان فضل

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل العنزي

د. حنان عبد المحسن مظفر

د. حيدر غلوم خاجة

مديرة التحرير: لماء خضر القبndi

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التضييد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

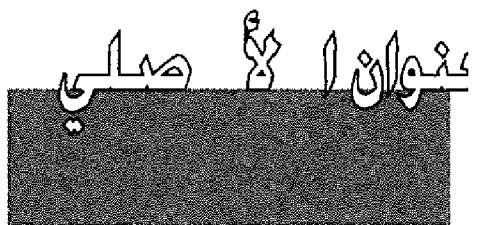
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-450-4

رقم الإيداع: 213/2015

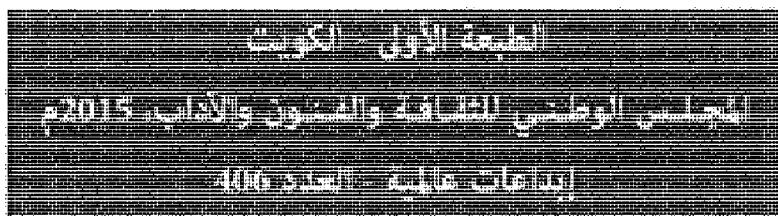
• الاب
رواية



Jürg Acklin

DER VATER

© Carl Hanser Verlag München 1998



مقدمة

(1)

لِحَةٌ عَنِ الْأَدْبُرِ السُّوِيْسِرِيِّ الْمُعَاصِرِ:

سويسرا هي واحدة من أكثر بلاد العالم ثراء، ثرية أيضاً بتنوعها الثقافي واللغوي، وفيها أربع لغات رسمية هي الألمانية ويتكلمها حوالي 72% من السكان، تليها الفرنسية، ثم الإيطالية، ولللغة الروتورومانية التي تعود أصولها إلى العصر الروماني واللغة اللاتينية.

ومن المعروف أن مصطلح «ال أدب الألماني» يعني الأدب المكتوب باللغة الألمانية، ولا يشمل هذا فقط جمهورية ألمانيا الاتحادية، وإنما أيضاً سويسرا والنمسا.. فجزء كبير من الأدب في سويسرا مكتوب باللغة الألمانية.

ولسويسرا وكتابها مساهمات لا يمكن إنكارها في الأدب الألماني، وذلك منذ البدايات، فشهرة هذا الأدب (السويسري) تعدد حدود سويسرا الإقليمية، ونالت شهرة عالمية كبيرة على يد ماكس فريش (1911 - 1991) وفريديريش دورينمات (1921 - 1990).. والمكتبة العربية تعرف هذين الكاتبين منذ ستينيات القرن الماضي، فلهما ترجمات عديدة إلى اللغة العربية، لكن مصطلح (الأدب السويسري) جاء لاحقاً وتأتي على يد الجيل التالي لدورينمات وفريش. هذا الجيل من الأدباء والكتاب على سبيل المثال لا الحصر، بيتر بيكسل (1935)، هرمان بورجر (1925 - 1989)، أوigen جومرينجر (1942)، أدولف موشج

(1924)، أورز فيدمر (1938 – 2014)، توماس هورليمان (1950)، يورج أكلين (1945)، مارتن سوتر (1948)، ميلينا موذر (1963)، باول نيتسون (1929)، بيتير فيبر (1968). رغم ذلك هناك أدباء سويسريون مشهوروون لا يعرفهم القارئ العربي، أهمهم روبرت فالزر (1878 – 1956)، تم الاهتمام بإنتاج هذا الأديب في سبعينيات القرن الماضي، ومن أهم أعماله، «الوردة»، «الإخوة تانر»، «حدث ذات يوم»، «اللص» وغيرها من الأشعار والرسائل الأدبية.

إن مؤلفات روبرت فالزر التي تنتمي إلى المذهب الواقعي كانت في الحقيقة الأساس لصطلاح الأدب السويسري، وينبغي أن نشير إلى أن هناك أدبيين شهيرين حصلا على جائزة نobel في الأدب هما في الأصل سويسريان: كارل شبيتلر (1845 – 1924)، وقد حصل على جائزة نobel في الأدب عام 1919، والثاني هيرمان هيسه (1877 – 1962)، وحصل على جائزة نobel في الأدب عام 1946.

يرى كثير من النقاد أن الواقعية هي التيار السائد في الرواية السويسرية الجديدة، فما بين الواقعية السيكولوجية والواقعية الفلسفية تأتي أعمال كثيرة من الأدباء السويسريين المعاصرين، فالاهتمام المفرط بتصوير الواقع بكل تفاصيله وكذلك التعامل مع الماضي بما قضيّتان ذواتاً أهمية بالغة في الأدب المكتوب باللغة الألمانية بشكل عام.

من القضايا التي تهم الأدباء في المجتمع السويسري المعاصر، والتي يكتبون عنها، الخوف والموت والوحدة والعزلة، وعلاقة

الرجل والمرأة، والحب والعجز والشيخوخة والضعف الإنساني، وهي قضايا إنسانية بحثة تهم الأدباء في كل مكان.

(2)

التعريف بالكاتب وأعماله:

ولد يورج أكلين في 20 فبراير 1945 في بلدة كوزناخت، والتي تطل على بحيرة زيوريخ، لأب يعمل مهندساً، ودرس العلوم الاجتماعية بجامعة برلين بألمانيا، وكانت رسالته للدكتوراه عام 1974 عن فيلهلم فايتلينج (1808 - 1871)، والذي يعتبر أول منظر ألماني للشيوعية.

عمل أكلين بعد تخرجه معلماً، واشترك في تجارب مدرسية حديثة مبتكرة بسويسرا في محاولة إصلاح تربوية في المدارس السويسرية، وقد حركة الإصلاح هذه لعدد من الأعوام قبل أن تهاجمه المؤسسات التربوية، وقد أثارت هذه القضية كثيراً من ردود الفعل في الرأي العام السوissري.

عمل يورج أكلين كذلك كمقدم برامج في التلفزيون السويسري، وكان له برنامج عن الفلسفة وبرنامج شهير أيضاً بعنوان «نادي الأدب»، والذي كان يستضيف فيه كثيراً من المفكرين والأدباء.

ويعمل أكلين حالياً كمحلل نفسي في عيادته الخاصة في مدينة زيوريخ.

وقد حاز على عدد من الجوائز الأدبية في ألمانيا وسويسرا،

منها جائزة فرديناند ماير وجائزة تسويليك للفن عن مجمل أعماله الأدبية، وجائزة مدينة زيوريخ للكتاب.

من مؤلفات أكلين:

- 1 - «الحالم الوحيد» - ديوان شعر 1967
- 2 - «ميغائيل هوبتلي» - رواية 1969
- 3 - «إلياس» - نصوص أدبية 1971
- 4 - «صعود المنطاد» - رواية 1980
- 5 - «رجل الكانجرو» - رواية 1992
- 6 - «زوجا التانجو» - رواية 1994
- 7 - «أغنية الضفدع» - رواية 1996
- 8 - «الأب» - رواية 1998
- 9 - «معيب» - رواية 2002
- 10 - «الثقة شيء طيب» - رواية 2009

ينتمي أكلين إلى النخبة السويسرية التي تمثل اليسار الليبرالي، فهو يعبر في رواياته عن أزمة الإنسان المعاصر والاغتراب والانكفاء على الذات الذي يعاني منه الفرد في أوروبا اليوم. وتصف أعماله بشكل واقعي العلاقات الإنسانية والأزمات بين الأشخاص والنزاعات وصراعات الأجيال.. وهو يعبر عن ذلك بشكل مبدع ومؤثر وقاس، وأعماله لا تخلو من ملامح العبث، لكنها تعتبر كثيرة من أبناء جيله تجسيداً للتيار الواقعى في الرواية السويسرية الجديدة.

تعتبر رواية «الأب» تسوية حساب الابن مع أبيه عبر رحلة في ذكرة الابن الذي يقوم بدراسة عائلية بعين محلل نفساني.

طرح الرواية التي لا تخلو من ملامح السيرة الذاتية العلاقة بين الأب والابن، وموضوع الشيخوخة والمرض والعجز، وكذلك وصف لواقف الأب وسلوكه في حياته مع أسرته وابنه بالذات.

يعالج أكلين بأسلوبه الساخر التهكمي ولغته التي تميل إلى لغة كتاب مسرح العبث قضايا إنسانية واقعية خطيرة يعاني منها المجتمع المعاصر، منها قضية التصالح مع الذات ومواجهة الماضي، ومحاولة التغلب عليه، لكن هذه القضايا هي إنسانية خالدة في المقام الأول، تشغل وتهم الإنسان في كل العصور، وليس بالضرورة أن يجد الكاتب المعاصر لها حلا.

يقتحم المؤلف نفسية الابن ويتوغل فيها، يتذكر ويحلل ويناقش وينقد سلوك الأب. يقول أحد النقاد عنه: «إن أكلين يكتب نثراً موجعاً، يتميز بالجرأة الشديدة والقاسية كما أن لديه القدرة على التعبير عن مكنون نفسه وتعرية ذوات الآخرين دون خوف أو موافقة أو نظر للعواقب».

تأثير إبسن واضح في الرواية وكذلك ستريندبرج، فهو أول من وظف التيار النفسي في الأدب، ومسرح حياته تتوجل في العقل الباطن، لكن التأثير الأكبر كان تأثير Kafka في رسالته «رسالة إلى الأب»، هذا التأثير لا يمكن إنكاره، فقد قدم Kafka نموذجاً للعلاقة بين الأب والابن، قلده وتأثر به الكثير من الأدباء حتى اليوم، فهو يرى صورة الأب كطاغية مستبد يفعل ما هو مقتنع به. إن هناك ملامح مشتركة ما بين Kafka وأكلين، فكلاهما حياته مليئة بالحزن والتعاسة والمعاناة على مستوى الأسرة.

يعترف المؤلف بأن كثيراً من ملامح الأب في روايته هي عن

أبيه نفسه، كما أن للمؤلف أخا معاقا، فهو يكتب عن خبرة شخصية بحثة، وهو يحاول قدر جهده استكشاف خبايا وخفايا النفس البشرية، وهو خلال ذلك ينزع في بعض الأحيان إلى التناقض ويميل إلى المبالغة.

تتميز نصوص أكلين بوصف مكثف ودقيق لسلوك الشخصيات، ويقول المؤلف إن الكتابة تعلمه التغلب على خوفه الذاتي، أما مخاوف الآخرين فهو يعالجها في عيادته الخاصة كمحلل نفساني، وهو يرى أن الخوف هو أثقل عبء على كاهل الإنسان.

يجيب أكلين عن السؤال: «لماذا تكتب عن الأب؟»، «إن الأب الذي يتقدم في العمر، هذا الأب القدوة تهتز صورته بعنف وقوة عندما يصير ضعيفاً وعاجزاً.. هذا الأب الذي كان طوال عمره شخصاً قوياً يحتاج الآخرون إلى حمايته، هو الآن الذي يحتاج الحماية».

ورغم أن المؤلف يتناول الموضوع بشيء من القسوة، لكنه يرى في ذلك نوعاً من أنواع المصالحة مع الأب، فهو يقول عن أبيه: «إن لدى خوفاً دائماً من أنني لا أستطيع فعل شيء بشكل أفضل مما فعله أبي».

إن المؤلف يحب أباً، ولكن تعبيره عن هذا الحب يختلف عما نعرفه نحن الشرقيين، فهو ينقده ويحرض في ماضيه، ويظهر عيوبه، ويدرك أنه كان يقول له ذلك أثناء حياته، وعندما كتب أكلين الرواية ونشرها رفض الأب قراءتها، ربما لأنه يعرف ابنه ويعرف رأيه فيه.

فالجرأة هي أهم ما يميز المؤلف في الكتابة عن أبيه، فهي أقوى ما يميز الأدب الهدف. إن التعامل مع الماضي والنشش فيه هو محاولة للتغلب عليه، ولربما كان ذلك نوعاً من أنواع الندم غير المباشر، والذي يريد الكاتب أن يعبر عنه.

يرى أحد النقاد «أن أكلين يفعل مثل الهندود الحمر الذين يحملون آباءهم عند الموت فوق أكتافهم ويصعدون بهم إلى الجبل كي يدفنوهم هناك. وهذا يذكرنا أيضاً بأسطورة إينياس اليونانية الرومانية الشهيرة، حيث يحمل أبوه إنخيسيس فوق كتفه ويهرب من طروادة، وإينياس هو أبو الرومان في الأساطير كما هو معروف».

يرى الروائي السويسري أدولف موشج أن كتابات أكلين تمثل الواقعية على الطريقة السويسرية، ويرى نقاد آخرون أن روايات أكلين هي خليط بين الواقعية والطبيعة، ويشكل عام تعتبر الواقعية هي التيار السائد في الرواية السويسرية المعاصرة.

في رواية «الأب» يختلف شكل الرواية السردي عن الشكل المألوف من حيث وجود حبكة وبداية ووسط ونهاية تحدث الرواية، فليس في الرواية وحدة الزمن التقليدية، وأحداثها كلها تدور في يوم واحد، وتنتمي إلى التيار المعروف في الرواية الحديثة باسم تيار الوعي الذي يعتبر جيمس جويس خير ممثل له.

المونولوج الداخلي هو التقنية الأهم في الرواية، وهو الأداة الفنية الوحيدة التي يلجأ إليها المؤلف، فهي تشكل العلاقة بين أفكار المؤلف وتدفق الوعي عند الشخصية. إن الأحداث في الرواية

والتي تبدأ من لحظة الخروج من بيت رعاية المسنين حتى انزلاق وسقوط فالتر وموت الأب في النهاية، كل هذه المشاهد تتم في يوم واحد، ومعظمها يدور في ذهن بطل الرواية.

(3)

- ثيمة «الأب» في الأدب الأوروبي:

لقد تناول الكتاب الأوروبيون بدأية من معالجة أسطورة «أوديب» لسوفوكليس حتى الروائي النمساوي المعاصر أرنو جايجر (1968) في روايته الملك القديم في منفاه (2011) موضوع العلاقة مع الأب.

وكان أشهر من تناول موضوع العلاقة مع الأب في الأدب الحديث هو الكاتب السويدي أوغست ستريندبرج (1849 - 1912) في مسرحيته الشهيرة «الأب»، وفرانز كافكا في «رسالة إلى الأب» والتي كان لها تأثير كبير للغاية على الأدباء بعده. كذلك عالج توماس مان (1875 - 1955) موضوع الأب في روايته «بودين بروكس» والنمساوي بيتر هاندكه (1942) في قصته «حكاية للأطفال». كذلك أوفه تيم (1940) الروائي الألماني المعاصر في قصته «أخي على سبيل المثال» في عام 2003، والتي يعرض فيها من سيرته الذاتية الكثير، ويطرح موضوع العلاقة بين الأب والابن، أيضاً الروائي الألماني فولف فوندراتشيك (1943) في روايته «الهدية».

تعتبر ثيمة الأب ثيمة إنسانية، وفي المجتمع العربي بالذات

يشكل الأب سلطة مطلقة أو شبه مطلقة.. وفي حالة ضعفه ومرضه أو موته تهتز أركان الأسرة إن لم تصب بالانهيار تماماً، وهذا الموضوع قريب إلى قلوب كثير من الكتاب الشرقيين أيضاً، فشخصية الأب لا تعترف بالضعف على الإطلاق وترفض العجز.. والأب (الرجل) ولد قوياً ويريد أن يموت قوياً، وهذا مناف لطبيعة البشر، وهنا يكمن السر الدرامي، وتتولد الجاذبية الأدبية.

د. عبد الحميد حسين

المراجع

Lexikon der Schweizer Literatur. Lenos Verlag.
Basel 1991

Bartenschlager Wilhelm. Deutsche
Literaturgeschichte. Leitner Verlag. Wien 1992

Pressemappe Juerg Acklin. Verlag Nagel &
Kimche. Zuerich

www.wikipedia.org-juerg Acklin

www.bibliomedia.ch-juerg Acklin

Zeitungartikel von und ueber Juerg Acklin.
Sueddeutsche Zeitung – Die Zeit. Dezember
2013

Acklin Juerg. Der Vater. Roman. Zuerich 1998

الأب

في ليلة الصيف تلك، حمل الابن أباه فوق ظهره. ذلك العميد، كثير النسيان، العجوز المحاط بالحفاضات، في تلك الليلة من شهر أغسطس، عندما صعد به الجبل، كانت ماكينات الحصاد العملاقة تنتشر بين الحقول، تعمل باستمرار، ولا تتوقف، تقطع ممرات الحبوب بقواطعها ذات الضجيج العالي، محدثة ضجيجاً أعلى بمحركاتها عند الاستدارة. العجوز الذي تلاشت قواه، لم يعد حملا ثقيلا فوق ظهر ابن القوي، كان الثقل في رأسه فقط. هذه الماكينات العملاقة، ماكينات الحصاد، كانت تبحث بكشافات الضوء عن الطريق، عالياً عند المنتجع الصحي، مثل آلات مناطق التزحلق في الليلة الجليدية تحت السماء السوداء.

أما هذه الكائنات من خارج الأرض، والتي تبدو كأنها هبطت للتو من الفضاء، فلم تكن سوى مزارعين يرتدون قبعات أذن مبطنة سميكة، جالسين عالياً فوق المحركات المرتقة، محدّقين في ضوء الكشافات الساقطة على السنابل المائلة. ظهر العرق على جبهة فالتر، وتقطّر كمجرى بارد إلى أسفل ظهره، وتجمع قرب حزام البنطال عند مفصل الفخذين. فقط قبل ساعات قليلة، كان قد وجد قصاصة ورقية فوق طاولة المطبخ: «من فضلك.. ضرورة الاتصال بمدير دار الرعاية، إن أباك فقد صوابه، سوف

أقيمت بضعة أيام لدى كاترين، علاقتنا لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل، مارا». كتابتها العجولة، وكيف كانت الورقة ملقة، حروف اسمها أكبر من الخبر نفسه، شكل الكتابة ترك أثرا غير مرير لديه، طريقة استخدامها للروابط بين حروف الكلمات أشعرته بالحرج، لا يكتب بهذه الطريقة سوى شخص مبتدل، إنها تشاهد التلفاز كثيراً وتكتب القليل جداً.

خطا ثالتر فوق البلاط، وترددت خطواته، كانت مارا قد ذهبت. كان يسعد في الماضي بوريقاتها الصغيرة، قال لنفسه: لا تفكّر كثيراً، انتهى الأمر، إن الأب في حاجة إلىّ. أخذ ثالتر حقيبة الظهر الكبيرة الخاصة به من خزانة الثياب، والتي كان الأب يضع بعض متعلقاته فيها عند الحاجة، وطفق خارجاً إلى الشارع.

لعينيه بدت الشمس الغاربة في ضباب المنطقة الصناعية وكأنها قمرٌ ياباني أحمر. ستكون هناك اليوم بالتأكيد عاصفة رعدية، كان مبني دار الرعاية يشبهه من بعيد سفينة ترفيه جانحة، وهيكل البناء فوق بئر المصعد وكأنه مقر قيادتها، والمبني الخرساني غير المطلني يلمع باللون الأحمر في شمس الغروب. مجموعة أنيقة من الزهور الرائعة، أحواض فيها زهور البيجونيا، وزهور البورتولا الصغيرة، أوان بلاستيكية بيضاء مليئة بزهور البيتونيا البرية.

العشب مقصوص قصيراً كقصبة فرشاة، وأحواض الورود خالية من الأعشاب الضارة. التربة طرية وكأنها باليد بشورة. كل شيء جاهز للفتيش في أي وقت، خلف الأبواب الزجاجية التي تغلق أوتوماتيكياً، تشم رائحة قديمة لاذعة، أرضيات لامعة، أبواب

الدخول ذات ألواح زجاجية نظيفة. على الجدران بعض لوحات الطباعة الحجرية لكاريجبيت: شيلين نورزلي مع جرسه الضخم، كما لو كانوا أطفالاً كبار السن هؤلاء من النساء والرجال! يسد مسام جلده، ويتنفس فقط من خلال الفم، يريد أن يجعل الموت والوهن بعيدين عنه. يريد أن يمرّ مهرولاً بعيون مغلقة على هذه المومياوات الحية، لكنه في ذات الوقت يحس بانجذاب سحري، ينظر بطرف عينه إلى داخل الغرف، إلى الوجوه المتحضرة ذات الأنوف المدببة، ينظر خلسة إلى تجويفات العيون البنية الصفراء، يغدو متلصصاً لحالة الأضمحلال هذه. في المرات تسود حالة من التذمر والتوبیخ، من القهقهة والشكوى، من الغباء والهميمة. في الطابق الأول تشم رائحة دخان نفاذة، كما لو أن أحداً قد قام بشيءٍ نقاوٍ في الهواء الطلق. في برك المياه على الأرض تتعكس أشعة الشمس الأخيرة المنحدرة، كانت الأرضية البلاستيك في الأمام قد غمرتها المياه، وخرطوم إطفاء مُلقى متعرجاً على الأرض وكأنه أفعى ضخمة ميتة، والمياه تتسرّب من صمامه الألومنيوم. صاح فالتر في المرضة المهرولة:

- ما الذي يجري هنا؟

- إنه حريق.

- أين؟

- في غرفة 209.

إنها غرفة أبيه.

كانوا قد نقلوا المشاكس العجوز إلى نهاية الممر، حيث لا ينتبه إليه أحد على الأقل عندما يصرخ حوله. ركض فالتر، والمياه تتسرّب يميناً ويساراً تحت نعليه حذائه.

- توقف!

أوقفه رجل شرطة.

- أنا أبحث عن أبي.

- أين هو؟

الغرفة المركزية كانت مزدحمة بالناس، ممرضات، عاملون في مجال الرعاية، اثنان من رجال الإطفاء، شرطي، مدير الدار، وأبوه على كرسيه المتحرك. شكله يبدو على ما يرام، الوجه يبدو مسوداً، الشعرات القليلة المنكوبة يبدو بها حرق طفيف، محلقة من السخونة وكأنهم قاموا بكى شعره، لكن تعbirات وجهه بدت جريئة، التقت نظراتهما، حينها معت عيناه بخبث. لا يمكن أن تحصل منه على أي شيء، قال مدير الدار:

- تصور ماذا كان ممكناً أن يحدث! دار ممتلئ بكمبار السن، منهم من هو غير قادر على المشي، كارثة كانت من الممكن أن تحدث. لقد احترقت الغرفة تماماً؛ إنه فعل ذلك عن عمد، أستطيع أن أؤكد لك هذا، أنا أعرف والدك، إنه يذهب إلى أقصى الحدود، لو لم يتعامل رجال إطفاء الدار مع الأمر على وجه السرعة ما كنا قد تمكنا من إنقاذه في آخر لحظة؛ لقد أضرم النار متعمداً، الآن يعتبر الأمر منتهياً، وسوف يتم نقله إلى قسم الطب النفسي.

وضع ثالتر يده على كتف أبيه، كان هناك القليل من اللحم، ومن خلال البدلة الرياضية الرقيقة ذات اللون البني الداكن، أحس فقط بالجلد الدافئ فوق عظام الكتف. صار الأب منكمشاً، شكل جسده جعل ثالتر يفكر في دجاجة تم نتف ريشها.

- لقد كنت محظوظاً يا أبي، الحرائق لا تستحق الذكر، فقط

احمرار خفيف، وبعض الشعرات المتجمدة، ألا تريد أن تقول لي
ماذا حدث، سيكون الأمر أسهل بكثير.

لكن العجوز لم ينطق، احتفظ بشفتيه مضغوطتين، كان صعبا
تحديد فمه ما بين شعيرات لحيته البيضاء القصيرة، كان عنيدا
مثل ذكر ماعز.

- هل حقا فعلت ذلك متعمدا؟
فكّر ثالتر.

- هل لعبت بالنار؟ هل تأملت الشمعة فقط في البداية؟
ورأيت كيف كان لهيبها يرقص حول الفتيل، ربما نفخت فيها
قليلاً؟ ورأيت كيف تراوغ شعلة اللهب نفخة الهواء؟ وكيف تتمايل
هامة إلى الجانب؟ هل أسلقت الشمعة بحركة طائشة؟
وبدأت ورقة الجريدة في الاحتعمال؟ وبقيت أنت تشاهد، كيف أن
حافة الورقة تحولت إلى اللون البني مكونة نصف دائرة صفيرة؟
وكيف تراقص فجأة لهب أصفر يميل إلى البياض وعادت الورقة
بسهولة إلى وضعها الطبيعي؟ وكيف اشتعلت النار فجأة؟ ربما
لم يحدث شيء في المرة الأولى، والورقة المتفحمة تنهر على
نفسها وتتسقط ثانية فوق الطاولة، وتنكمش قبل أن تتحول إلى
بقايا «سخام».

كل ذلك كان ولا يزال مجرد لعب وحسب؟ هل نفخت فيها
وعاد الجمر يشتعل من جديد؟ أم وضعت ورقة أخرى فوق
الشمعة؛ ولما اشتدت السخونة اضطررت فجأة لتركها تسقط
فوق الطاولة؟ لقد امتدت النار والتهمت ورقات أخرى للجريدة،
كان مفرش الطاولة محروقا في ذلك الحين، ثم جلست أنت
مثل باحث تشاهد ماذا يحدث مشدودا وفجأة اشتعلت النار

بالستارة، واشتدت السخونة، وعندما خطفت الحرارة أنفاسك، دفعت نفسك بعيدا عن الطاولة بكرسيك المتحرك ورجعت إلى الخلف قليلا. هل صحت؟ هل صرخت؟ ماذا فعلت؟ كيف وجدوك؟ كلا، كان ينبغي عليك ألا تصرخ، كانت المرضة فقط تريد إعداد السرير للمساء، وعند فتح الباب بدأت النار في الاشتعال بسبب تيار الهواء.

كنت تأكل وأنت تسعل على المائدة، كان على المرضة أن تُخرجك بكرسيك وتوصد الباب خلفها.

سوداء صارت الغرفة ولون دهان السقف أصبح محترقا وجانب من الطاولة متفحّم، ظهرت الفقاقيع على طلائها الأصفر، وبدا شكله مثل جبن الراكليت. كل شيء به بخار، ورائحة دخان رطب كريهة تفوح من المكان. كانت تُذكّر ثالتر بالمزارع المحروقة التي كان يراها بالقرى في نزهات الأحد وهو طفل. لقد انتزعته رؤية البقايا السوداء في الأسقف المتموجة من المزاج الجميل، وجعلته يتوقف ببرهة قصيرة غارقا في أفكاره، لقد تخيل أن المبنى تحول إلى لهب ونيران مشتعلة. وانعكست النار في عيون الناس المحيطة بالمكان، بينما كانت الماشية تخور في الحظائر، و طفل يختنق في مهدّه.

- لقد احترقت الغرفة رقم 209 تماما، أبي لم يعد بإمكانه العودة، مقر إقامته الأخير صار حفرة سوداء كريهة الرائحة. لقد كان مدير الدار على حق، لقد فعلت ذلك متعمدا، إنني أعرفك، عندما كنت تشعر بالظلم، كنت تدافع عن نفسك، كنت تتقمّد دائما، لقد كان ذلك جزءا من شخصيتك؛ عندما كنت تتلقى غرامات لا مبرر لها بخصوص ركن السيارة؛ كنت تسرق

الأب

بنفس قيمة الغرامة زهورا في شتاد بارك، أو كنت تحطم بمفك البراغي بسكين الجيب الذي تحمله دائما لوحا زجاجيا في ماكينة موقف السيارات. عندها فقط كنت تشعر بالراحة. لم تسقط الشمعة بسهولة من تلقاء نفسها، من خلال حركة خرقاء. كلاً، لقد أضرمت النار في حجرتك متعمدا، كنت تريد أن تنتقم: «عندما أموت ذات يوم، يجب أن يموت البعض معي»، كنت تكرر ذلك دوما، لقد ظللت مخلصا لذاتك، نهاية قوية، و كنت تأخذ موتك في الاعتبار، من أجل ذلك ترى سفينة الترفيه الجانحة تضيء في توهج الحريق، وفي الطوابق خيالات ظل لأشخاص شاردة، شيء خطير كان حدوثه جائزا للكبار السن هؤلاء من النساء والرجال.

كان الرعب الكبير سيصبح سيد الموقف، بعد اليوم لن يكون هناك انتظار ممل للموت. لقد صرت يا أبي العزيز في أيام عمرك الأخيرة مشعلا للحرائق، كنت تريد طوال الوقت حمايتي منها وأنا طفل. لقد تحملت المخاوف بسبب ذلك، وتملك الرعب، عندما سمعت أنني لعبت سرا بأعواد الثقب الصغيرة وقد سقط واحد منها متفحّم على الأرضية الخشبية، ولأنك كنت تريد أن تمنع ذلك وللأبد، وتريد أنأشعر بذلك في جسدي، وكيف أنه كان شيئا خطيرا، فقد أخذت إصبعي السبابية الصغير ووضعته فوق شمعة مشتعلة، حتى صرخت، وتكونت فقاعة بإصبعي الصغير وتدخلت الأم.

بعدها لم تشعر حتى بالخجل، كنت تحس أنك على حق، لم تكن ساديا؛ كان الأمر بالنسبة لك يتعلق بالبدأ فحسب. لأنك كنت تريد حمايتي من الأسوأ، وهذا الأسوأ كان طفلا محروقا

في مسكن محترق. حياة محطمة، كنت لا تستطيع تحمل رعبك عندما ترى بقايا لحم ابنك المحروق في نعش الطفل الأبيض. كان عليك أن تفعل شيئاً، والآن، هل أقوم بمسك إصبعك الضامر وأضعه فوق شمعة مشتعلة كذلك؟ هل أطلب ولاعة غاز من ممرض، وأخذ يدك؟ أنت أيضاً لن يمكنك الدفاع عن نفسك، سوف أمسك يدك، الجافة، الملائمة بالجلد الهزيل، يد العجوز الممتدة، وبحذر سأخذ إصبعاً منها، وأضعها فوق اللهب، حتى تئن، وحتى تكون فقاعات بجلدك الجاف المتشقق، بعدها سأقوم بغمس إصبعك في كوب جاهز من الماء، لأنه في نهاية المطاف لا ينبغي أن تحس بمعاناة لا داعي لها.

لم يكن ذلك غير مثال للردع والتخويف، والآن سوف أصبح يا مدير الدار، يمكنك الاحتفاظ به، فهو لن يشغل غرفته بعد الآن، أنا أضمن لك ذلك، أبي لا يريد أن تكون له علاقة بالنار. بعد اليوم. لكن الواقع بدا مختلفاً، اليوم يجب أن نقله، قال المدير هذا بتعبيرات وجه وكأن الحق في جانبه. إن أباك بالفعل خطر على الجميع، كل الموجودين كانوا من الممكن أن يموتو، يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا «يختنقوا أو يُحرقوا»، كررتها تلقائياً امرأة عجوز ذات جمجمة شبه صلباء وحاجبين أسودين كثيفين. «يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا»، كررتها العجوز مراراً، لقد كان الأب حقوداً ولقد عذبنا كثيراً، أنت لا يمكن لك أن تخيل، قالها المدير.

ذات مرة قذف ممراً بطبق الحساء في وجهه، وكان على وشك أن يطعن ممرضة بمقص في الجزء العلوي من فخذه. في هذه الفوضى كان يسمح لنفسه بالتمادي، ويتبول متعمداً

في الفراش، رغم أنه لم يكن مصاباً بداء سلس البول، لكنه أراد أن ينهكنا. كان ينادي باستمرار وعندما تأتي إحدى المرضات، يكون دائمًا قد فات الأوان. «كانوا من الممكن أن يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا»، كررتها المرأة العجوز لا مبالغة، (يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، أخرجوها من هنا، أنا لم أعد أتحمل ذلك، صاحت ممرضة، أنا لم أعد أتحمل سماعها. قال الشرطي بنبرة واقعية:

- يجب الآن أن أحضر محضرا.

(ليختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، صاحت العجوز ذات الجمجمة الصلقاء وال حاجبين الكثيفين. سأله مدير الدار:

- هل الأمر يحتاج محضراً؟ لكن عليك أن تعمل على عدم نشر الخبر في الصحف، لأن ذلك سيكون دعاية سيئة لدارنا، بالذات في الوقت الحالي، أنت لا يمكنك أن تخيل كيف أنت نصاع من أجل الحصول على عملاء، أيضاً هنا المنافسة في السوق صعبة وقاسية، لقد تم إلغاء الدعم الحكومي منذ فترة طويلة.

قال ثالتر:

- لكن هذا أمر غير إنساني.

- أنا لا أريد أن أسمع شيئاً، خذ أباك معك إلى البيت.
قال المدير.

أقوال كبيرة تُقال، وعندما يتعلق الأمر بالفعل يحدث التراجع. مكان صغير جيد، تخيل ثالتر، مكاناً صغيراً جيداً للأب، الذي منحني فيما مضى، ركتنا صغيراً في غرفة الحرف بجانب طاولة عمله، وسألهني بكل ما هو ضروري؛ مكبساً مثبتاً بالطاولة،

ولوحا خشبيا به مكان لتعليق الأدوات، مثل ما لديه، فقط كل شيء كان أصغر حجما. بعناية سوف يجردونك من البدلة الرياضية، وعليك أن تمد ذراعيك، الذراع اليسرى أولاً، بعدها اليمنى، بعدها سوف يديرونك بعض الشيء، ويرفعك المرض إلى أعلى قليلا، حتى تتمكن المرضة من أن تشد السروال من فوق مؤخرتك، وتزعز لصقة الحفاضات، سوف يضعون بطانية فوق نصفك الأسفل، ثم يتوجهون بك وأنتم فوق كرسيك المتحرك إلى غرفة الاستحمام، ويضعونك تحت الدش ويقومون بفسلك بالصابون. لن يكون هناك ثمة فرق، فهم يقومون بغسل ظهرك، قدميك، أو قُبُلَكَ، كل شيء بدقة وفقا للوائح، بإتقان وبلا عاطفة. تخيل أنه في بعض الأحيان تومض الرغبة فجأة لدى أحد كبار السن، فلا داعي لإضفاء أهمية على هذا الشأن، فقط بعض الماء البارد وبعدها يزول كل هذا المجد. سوف ترتدي بدلة رياضية نظيفة، والشعرات المجففة القليلة ستظل ملتصقة بالجمجمة مثل زغب، وسيدفعونك بحذر إلى المصعد، وكأنهم يقودونك إلى صالة الطعام، والأبواب التي تغلق أوتوماتيكيا في المر، تفتح كما هو الحال دائما بحركة اهتزازية خفيفة. لكنهم في ذلك الوقت سيدفعونك بكرسيك المتحرك إلى المخرج، ربما يضعون دثارا فوق ركبتيك، رغم سخونة الطقس الرهيبة، بالضبط وفقا للوائح، فكبار السن لديهم دورة دموية ضعيفة.

وفي الخارج ستتظر سيارة عادية، ربما يأخذك مدير الدار شخصيا في سيارته ماركة تويوتا كامري، ربما يتملكه الخوف من أن تقوم بتلويث مقاعد سيارته، إنه لا يريد هذه الرائحة، رائحة كبار السن وبالذات في سيارته الخاصة. يمكنني بشكل

ما أن أتفهم ذلك لأنه في النهاية أيضاً إنسان. يقف في الخارج تاكسي، 44444، ويخرج سائق ودود من السيارة، ويدخل قميصه في البنطال، ويلقي وبحركة محسوبة تماماً بعقب سيجارته في قالب زهور البيتونيا، ويلقي نظرة مريبة إلى الراكب في كرسيه المتحرك؛ هل يجب عليه حمله إلى السيارة؟ هل معه مراافق؟ أم عليه أن يقدم مساعدة إضافية دون مقابل؟ يا أبي عليك الآن أن تأخذ قراراً، في مثل هذه المواقف كنت دائماً تفعل شيئاً، لماذا الآن تخذلني فجأة؟ هل تعرف ماذا يعني أن يتم نقلك إلى مستشفى الطب النفسي للشيخوخة؟ سيملؤون جسدك بالأدوية، لن تراودك فكرة أن تضايق المرضات أو تضرم النار، ربما ترقد في السرير طوال اليوم، ويقومون بتحريكك من حين لآخر، حتى لا يتقرّح جسدك.

سيفتحون النافذة، حتى تمتلئ الغرفة بالهواء النقي، ولن ينقصك شيء، سيهتمون بك، بالضبط وفقاً للوائح. وربما توجد علاوة على ذلك في مكان ما في القسم، متدرية، ترثيّت بيدها فوق رأسك، ذلك لأنك قريب يا أبي جداً من السماء، من يدري. وفيما ستتذكر طوال اليوم؟ هل ستقوم بالتنزه في ذاكراتك؟ هل لديك صور خاصة؟ والتي لا يمكن التخلص منها؟ والتي تطاردك دائماً؟ هل ستعاني من الكوابيس؟ أم ستذبل مثل نبات في سلام؟ هل تستطيع التعرف علىّ؟

سيضعون غطاء بلاستيكياً فوق المقعد الخلفي، لا شيء يمكن أن يحدث، لقد كان في التوّ بدورة المياه، وبشكل عام فهو محاط بالحفاضات بإحكام. لا داعي للقلق، الآن سيؤخذ الأمر بجدية يا أبي العزيز، فهل تريد أن تبقى صامتاً؟

وهنا سأل الشرطي فجأة:

- هل والدك منزوع الوصاية؟ لماذا كانت توجد لديه شمعة مشتعلة في الغرفة؟

قال ممرض شاب:

- إنه كان يطلب دائمًا شمعة عند تناول الطعام. وعندما كان يريد أحدنا أن يبعدها عنه، كان يظل يصرخ حتى نعيدها إليه، ربما كانت تمثل له نور الحياة.

(ليختنقوا في الأسرة أو يُحرقوا)، صاحت فجأة العجوز ذات الجمجمة الصلباء وال حاجبين الكثيفين مرة ثانية وعلامات الانتصار على وجهها، (يختنقوا في الأسرة أو يُحرقوا).

في هذه الأثناء وضع الأب يده فوق رأسه، قال الابن:

- ربما كان هناك شيء يؤلمه، أعطوني من فضلكم فوطة مبللة. لا.. أنا سأذهب به إلى الحمام.

قال الابن للشرطي:

- هل تحتاجني للتحقيق؟ فيما بعد، عندما تعود مرة ثانية، إن هذا يكفي، فإنك لم تكن موجوداً عند اندلاع الحريق. ممرض شاب، ذو شعر قصير مصبوب باللون الأصفر بين له الطريق.

دفع الابن أباًه على كرسيه المتحرك خارج غرفة الانتظار، مارا بساكني الدار، المذهلين بما حدث، والذين يجلسون في ثياب النوم على حواف أسرّتهم أو الذين يمسكون بمقابض الأسرّة مرتعشين يحاولون حفظ توازنهم.

الممرضات المساعدات يمسحن الماء بمساحات الإسفنج والمطاط، والتي كن يعصرنها فوق الدلاء البلاستيكية الموجودة

الأب

في الحمام، مرّ الابن بفوطة مبللة فوق رأس الأب، قال المرض: ربما ينبغي أن نحمسه. أنا سأحضر لك ملابس داخلية نظيفة وحفاضات وبدلة تدريب رياضية، هل تستطيع بمفردك القيام بذلك؟ لماذا لا يستطيع الابن بمفرده إنجاز ذلك مع الأب؟ إن هذا من شأنه أن يكون مثاراً للسخرية.

فتح سحّاب السترة الرياضية وسحبها فوق رأسه، قائلاً: هل يمكن أن تساعدني وترفع ذراعيك بعض الشيء. بعد ذلك يأتي القميص الداخلي.

لم يستطع أن ينظر إلى جسد أبيه، كان يشعر بالخجل، وينظر إليه خلسة من طرف العين، ويود لوأغلق عينيه أمام هذا العجوز ذي اللحم الأبيض.

قال المرض: ها هي الملابس الداخلية النظيفة وبدلة التدريب الرياضية، هل يمكنك أن تتجزّ هذا بمفردك؟ أيضاً مع الحفاضات؟ شكراً. هل أنت هنا منذ مدة طويلة؟ كلا.. أنا أريد أن أصير طبيباً، هذا هو التدريب العملي لي وحدّي مرة أخرى. ستخلع البنطال، عليه أن يرفع الأب، بالذراع اليمنى يمسك الظهر النحيل.

أحس بجلد العجوز الدافئ الذي كانت رائحته كالدخان، هكذا تكون رائحة شخص يدفع نفسه على النار، عندما يحرّر نقانق على سيخ، هذه الرائحة لا يمكن للمرء أن يزيّلها من ملابسه. إن رائحتك كشيء طازج مدخن.. تجنب نظرة الأب، حينما رفعه عالياً، وقام بإمساك البنطال، وشده لأعلى مع السروال الداخلي على الفخذين. الآن سترتدي الجوارب فوق القدمين، الحفاضات لن أفتحها إلا في الحمام.. حمل الابن أباه عالياً، الأب الذي

كان ذات يوم، قويا، رياضيا، والذي كان يستطيع أن يتسلق قائم التسلق بساقين مشيتين. الحفاضات كانت ثقيلة، مشربة بالبول، وقبله صار متعددا من البال.

ألقى ثالتر الحفاضات في دلو، ثم فتح صنبور المياه، واختبر درجة حرارة الماء، وقام بتحميم الأب. وبإسفنجه مليئة برغوة الصابون قام بتنظيفه. تجنب النظر في عينيه، وإلى أعضائه التنسالية، بعدها قام بلف الأب بفوطة حمام كبيرة بيضاء خشنة تابعة للدار. وتذكر ثالتر ما قاله الأب في ذلك الوقت: خذ الجرة التي بها رماد جسدي بعد حرقه؛ واذهب إلى زيورخ لأوبيرلاند، اصعد فوق التل، وانثر رمادي، أنا لا أريد قبرا، عليك أن تفعل ذلك من أجلي، إنه واجب الابن وخدمة الحب الأخيرة. لقد طلب هذا منذ عدة سنوات، أشاء إحدى النزهات. بعدها أجلس الأب فوق كرسيه المتحرك، والذي كان قد وضع الحفاضات فوقه، ومدها ناحية الظهر وفوق موضع ذكورته، ولصق جزأيها فوق بعضهما من الجانب بشكل محكم.

الآن تأتي السراويل الداخلية. سمع المرضات يدفعن باللمسح تجاه باب الحمام، سمع عصر المياه من إسفنجات الاستحمام مسببة صوتا كالصفير وهي تتدفق في الدلاء. السراويل الداخلية ناصعة البياض، وحجمها كبير بشكل كاف، كي يتم لفها حول الحفاضات، في الحال سوف يأتون لأخذك يا أبي، هل تفهمني؟ ومد القميص الداخلي فوق رأس الأب، وفي أشاء ذلك قام بنكش شعره. إنها خدمة الحب الأخيرة. كان يحكى له الأب فيما مضى: لا يجوز أن تخذل رفيقا في الحرب،

لا يمكن للمرء أن يسمح بترك رفيق جريح للأعداء، فنظراته
اليائسة ستطاردك طوال العمر.

وماذا يجب عمله، سأله الصغير أباه آنذاك، ربما كان في
السادسة أو السابعة من العمر. عليك أن تطلق عليه النار إذا
طلب منك ذلك. إنها مواقف في الحياة، يجب أن تحسّم الأمر
فيها سريعاً يا صغيري. ويجب ألا ترك الحيوانات تعاني، لقد
شهد الفتى هذا بنفسه، أرنبًا مريضاً، كان يجر ساقه الخلفية،
ضربه الأب بعصا على عنقه. فقط عليك أن تتوجه في التصويب،
تطلق النار على صديق عزيز، وتسدي له في مثل هذا الموقف
خدمةأخيرة.. أين؟ ماذاأين؟ في أي مكان في جسده ستطلق
عليه الرصاص؟ سأله الطفل، في الرأس أم في القلب؟ ثالترشد
البدلة الرياضية فوق رأس الأب، وعبر صدره إلى الجزء التحتي
وعبر الظهر حتى مؤخرته المحكمة بالحفاظات، أين؟ في الرأس
أم في القلب؟ ماذاإن؟ هذا السؤال لم يجب عليه الأب أبداً.
ظهر العرق على جبين الابن، وهو يجلس القرفصاء، ويلف
الجورب حول قدمي الأب، ويدس ساقيه في بنطال البدلة
الرياضية، بعدها أليسه البنطال ذا اللون الأزرق الفاتح وشده
عالياً تحت مقعده وفوق الحفاظات، ومشى بالمشط فوق شعره
مرة أخرى. في الرأس أم في القلب؟ هناك طرق على الباب، لم
 يكن مدیر الدار، كانت المرأة العجوز، نظرت إلى الداخل وصاحت:
ليختنقوا في الأسرة أو يُحرقوا. ببغاء في صورة إنسان، لكن
بلا أجنة، هذه المرأة. أفضل صديق يجب عليك قتله بالرصاص
في مثل هذا الموقف، هنا، يجب أن تستطيع أن تتظر في عينيه.
وضع الأب يديه فوق مسند الكرسي المتحرك، وكانت أوتار اليدين

بارزة فوق جلده المترهل المصفر. لم يعد هناك أي لحم فوق المفصل المليء بالعقد. لماذا يا أبي العزيز؟ لم تجنبني عملاً مثل هذا؟ في الماضي كنت رجلاً قوياً، تنكب على العمل وتستطيع أن تضرب. ذات مرة أسقطت رجلاً على الأرض عندما قام بالهجوم عليك و كنت في الرابعة والعشرين عندئذ. وحتى وقت قريب، كنت ما زلت تقلم الأشجار بالمقص، بحركات قوية وبلا كل.. والآن؟ لماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ قل شيئاً يا أبي.. أعط أية علامة؟

هل تتذكر أي شيء؟ هل ما زلت تتذكر نفسك؟ أنا لا يمكنني أن أفعل شيئاً لك، وسوف يأخذونك معهم، ربما يكون هذا شيئاً طيباً. لماذا لا تنطق بكلمة؟ هل أصابك الخرف؟ أم تتصنعه؟ أم كلامها؟ ربما لا يكون الوضع في مستشفى الأمراض النفسية مختلفاً عن هنا، ربما يكونون أكثر وداً. نظر ثالتر إلى المرأة خلف حوض الغسيل، وقارن نفسه بالأب، شيءٌ لافت للنظر، نفس تكوين الرأس، أنت تشبه أباك كل يوم أكثر، أيضاً الوضع الجسماني، لا، لا، ليس فقط بسبب الصلة المبتدئة، إنما المظاهر الكلية، بشكل عام.

من ناحية كان ثالتر فخوراً، ومن ناحية أخرى قال لنفسه، كل شيء إلا هذا. رغم أن الأب كان رجلاً وسيماً، وكانت لديه حظوظ عالية لدى النساء، ومحترماً من قبل الرجال، لقد كان أكثر وسامة من ابنه نفسه. كان ثالتر يعتقد، بطريقة أو بأخرى أن الأب كان أكثر جرأة، أكثر رجولة، على الأقل في الصور فقط. لم يستطع ابنه أبداً أن يصل إلى مستوى الأب، كان الأب سيقتل صديقاً له في الحرب، دون شك كان سينظر في عينيه،

وسيضغط على الزناد. لكن يا أبي أنا لا أستطيع أن أخنقك، أنا لا يمكن أن أقتلك بمرفق الدش. ماذا في الحقيقة تتضرر مني؟ واجب الابن؟ هل ينبغي عليّ أن آخذك معي إلى البيت؟ هل يجب أن أقوم بتنظيم مؤخرتك العجوز المتجلدة المترهلة كل يوم؟ نعم، من الممكن أن تأتي معي إلى مسكنى، فمساحته كبيرة بما فيه الكفاية، لكن، ماذا يمكن أن تقول مارا بخصوص ذلك؟ من المحتمل أن تترك الشقة، لكن أنا شخصيا لا يمكنني تحملك على أية حال يا أبي.

هذه هي الحقيقة العارية، لقد كنت أتحملك بصعوبة في الماضي، قريك كان دائما يسلبني حرتي، لكن الآن تقتلني بكآبتك الخرساء، ألا تفهم ذلك؟ أنا لا أسمح لنفسي بخذلانك، إذا كنت فعلا في حاجة إلىّ، وأنت أيضا هل كنت ستفعل نفس الشيء ولا تخذلي؟ ربما كان من الأفضل لك أن تذهب إلى مستشفى الأمراض النفسية، جاهزون هم هناك مثل حالتك، هناك سوف يتركونك في هدوء، وسوف يهدئون أعصابك عندما تغضب، فأنت دائما متقلب المزاج وسريع الغضب، ربما كان مكانك هناك بالفعل، ربما كان مدير الدار على حق، كل شيء ضروري سيكون متوفرا لك، ولن ينقصك شيء، لماذا نثور ضد ما لا مفرّ منه؟

أنا لا أريد عجوزا رضيعا في شقتي، أريد أن أحيا في حرية، أنا لا يمكنني تحمل وجودك يا أبي، هل تفهم ذلك؟ وما رأيك؟ ربما يررق لك الوضع في المستشفى؟ سوف أزورك بانتظام، يمكنك الاعتماد عليّ في ذلك، وقد أثبتت هذا أيضا حتى الآن. أنت لا يمكنك الشكوى، لساعات طويلة كنت أطلّ معك من النافذة،

أثرر معك أو أصمت. هناك في مستشفى الأمراض النفسية، فوق، في مكانك المحبوب زبورخ لأوبرلاند، سيكون لديك منظر خلاب، ربما تتعش مرة ثانية من جديد، عندما تتناول الأدوية المناسبة. هنا في دار الرعاية ليست لديهم أية فكرة، أما هناك فقد تم تأسيسهم لهذا الغرض. من يدري، ربما تتفتح يوماً من جديد مثل وردة. ماذا تتتظر في الحقيقة مني؟ هل يجب أن أقوم بدفع كرسيك المتحرك عبر السلالم إلى أسفل كي تقفز على الدرج مثل أرنب؟ أو كعريّة الأطفال في فيلم المدمرة بوتمكين؟ سوف تقفز عدة قفزات، هوب هوب، ثم بعدها يسقط الكرسي وتقذف بعيداً، ويصطدم رأسك بأحد سلالم الدرج.

ربما تبقى على قيد الحياة، وتستلقي مغيباً بضم مفتوح على السرير، عيد ميلاد بعد عيد ميلاد، حتى يصير عمرك مئة عام، بقلبك السليم.. هل تريد ذلك فعلاً؟ هل تتظره مني؟ هل أرّكب لك خليطاً من السموم؟ لكن طريقة إنسانية لا تتناسبك، هذا الفرار الناعم، والموت الصامت لا يناسبك، أنا لا يمكنني تخيل ذلك. كنت تقول إن الرجل الحقيقي هو من يمسك بقرني الثور، الآن يمكنني أن أثبت أنني صرتُ رجلاً حقيقياً.

ثالثـ نفسه أصيب بالدهشة، حين وضع يده فجأة على رأس أبيه، عندما رأى كيف تتهمر دموع الآب على وجنتيه غير الحليقتين جيداً، على شعيرات الذقن الشبياء، متوجهة إلى فمه الصغير ذي الشفاه الرقيقة.

أبداً لا يتذكر أبداً أنه رأى الآب قبل اليوم باكيما، حتى عندما مات والده، وقف متاجراً بنوع من الاهتمام أمام الموت. الآن وفجأة صارت عيناه دامعتين. الفتى الحقيقي لا يبكي، الفتى

يجب أن يكون شجاعاً، الفتى الصغير هن اللاتي يبكين. هل تذكر عندما قلت لي ذلك: تماسك! لقد عرفت الآن، لماذا يقول الآباء ذلك لأنبنائهم، إنهم لا يتحملون رؤية الدموع في عيون الأبناء، أما دموعهم هم، تلك التي يحبسونها وتصعد لأعماقهم، فيعتبر لهم الخوف من أن يجرفهم تيارها ويغرقوا في فيضان من الدموع.

حمل ثالتر الأب، رفعه عالياً، شيء مدهش، كم هو خفيف! أربعون كيلو جرام على الأكثر! وزن الذبابة. بعدها انحنى وتشى ركبتيه، ووضع الأب فوق الكتفين، هكذا، كما كان يجلس وهو طفل فوق كتفيّ الأب. من هذا الموضع العالي كان ينظر من فوق إلى أسفل على الجميع، وعندما تحرق الدمية المحشوّة ببقايا الخشب في هيئة رجل الثلج في أعياد الربيع في زيوريخ. لم يتعب الأب أبداً، كان في استطاعته حمل طفله لساعات طويلة. صاح الأب وهو يحملني، تماسك، كان ذلك حينما يشعر الصغير بالفزع عند سماع الانفجارات. إن هذا شيء سخيف، لم يتم أحد حتى الآن بسبب هذه الفرقة، انتظر حتى ينفجر الرأس، حينئذ سيكون الدويّ هو الأروع.

كان الأب منزعجاً، والصغير أحـس ذلك من حركات رأس الأب المتشنجـة: عليك أن تكف عن الحركة، إن هذا ليس مدعا، ولا يوجد إطلاق للنيران، إنه أحد الطقوس القديمة، بهذه الفرقة يتم طرد الشـقاء. ذات مرة وهو فوق كتفيّ الأب، تبول الصغير في البنطال. يا لها من فوضى ملعونة، قالـها الأب وأنزلـه من فوق كتفيه، وسحبـه إلى أقرب تـوالـيت عمومـي في بـيلـفي بلاـتس، وهناك أنـزلـ بنـطالـه ومسـحـ عـانـته مؤـقـتاً بـورـقـ التـوالـيت المـبلـلـ

بالماء، حتى إن بقايا الورق ظلت عالقة بها. في المرة القادمة، عليك أن تتماسك وإلا بقينا في البيت، لا تس أذك صبي.

وفي الخارج انفجر رأس الدمية، مسببة صوت فرقعة رهيبة. لقد كان وكأن كل شيء تم جرفه من فوق سطح الأرض، الأشجار القديمة المحاطة بالمكان، الناس، المبني. عليك يا أبي أن تخفض رأسك، وإلا فلن نتمكن من الخروج من الباب، عليك أن تتماسك. ضغط ثالتر رأس أبيه إلى أسفل وأحس بذقنه الخشنة على وجهه. شخصان غريبان يمكن رؤيتهمما في المرأة المكسوة بالبخار. أمسك عنقي بكلتا يديك، ليس بعنف، أنت تسحب مني الهواء، نعم، هكذا، الآن سوف يمر الأمر سريعا: الجو مهياً، لا أحد هناك، سوى مساعدات المرضات اللاتي يقمن بالتنظيم، لا أحد في الممر، إنهم لا يمكنهم منعنا. انتبه، الأمر سيصير جادا، يجب علينا بلوغ الدرج، أمسك بقوّة!

(ليختنقوا في الأسرة أو يُحرقوا)، صاحت العجوز ذات الجمجمة الصلباء، عندما رأت الأب، (يختنقوا في الأسرة أو يُحرقوا). أما الآخرون فلم يزعجهم شيء، مساعدات المرضات كن ينظفن بالمامسح والفوط، وكبار السن من الرجال والنساء، كانوا يجلسون في كراسى المقطدين، أو كانوا راقدين في أسرتهم، بين اليقظة والنوم، غير واعين، محدقين في شاشات التلفزيون المهتزة. الآن سأدفع بقدمي باب الممر، كُنْ في وضع مستقيم ولا تتحرك، لو تسببت في صعاب فلن ينجح الأمر، هنا على الدرج سيكون الأمر أسرع من المصعد، شيء كوميدي يا أبي، أليس كذلك، تقريبا مثل ركوب الخيل، اقفز، اقفز أيها الفارس. عندما يسقط.. عندما يصرخ.. لا تسقط، لا تصرخ، وإن فالرحلة

الأب

ستنتهي قبل أن تبدأ. هذا شيء ممتع، الآن فقط اقتربنا من باب المدخل، في الخارج، كان الليل قد بدأ في الهبوط، دعنا نغادر فورا، ننصرف من هنا.

لا يمكنهم تصور ذلك، لا يمكن لأحد تخيله. (ليختقوا في الأسرة أو يحرقوا)، صاح ثالتر ضاحكا لقد جنّ الأب وحال الابن ليس مختلفا، يبدو أن الجنون شيء متصل في عائلتنا. تخيل أن الدار احترقت بأشنة النيران، سفينة حربية تفجر بمقرية من الجبل المظلم، صفير ورعدُ انفجار وحطام، صراخ وأنين، لا نوم بعد اليوم، لا أحلام. والآن إلى أين ستجه؟ إلى اليسار، أم إلى اليمين؟ سوف تذهب إلى كوخ الريفي المحبوب في زiyorخر أوبرلاند، والذي قمت أنت بنفسك ببنائه من الخشب منذ أعوام، هل ما زلت تتذكر؟ عندما قمت بشراء جذوع الشجر المقطوعة الطازجة من حارس الغابة؟ وكنت تأتي كل عطلة سبت وأحد لتعمل في بنائه. في بعض الأحيان كنت أساعدك، أكثر من عامين أمضيت في بناء هذا الكوخ. بعدها صار البيت الخشبي جاهزا، كانت زيارتي الأخيرة مع مارا هناك منذ نصف عام تقريبا.

إن خشب البيت يحتاج طلاء جديدا، لكن ما زالت حالة السقف جيدة، ما زال هناك بالتأكيد عدد من علب معكرونة رافيولي وكريم الفانيлиيا. سوف يكون كل شيء على ما يرام. إلى هناك سوف تذهب يا أبي، وهناك سوف نسكن سويا، وسيكون الأمر أجمل، الأب والابن، سوف نريهم يا أبي، أو ماذا يمكن أن يحدث لو قمت بحملك إلى الجبل، وأجلستك على كرسي وبعدها وبكل بساطة تركتك وحدك هناك ومشيت؟ ربما يفتقدونك الآن

بالفعل، وبدؤوا في البحث عنك، ستادي ممرضة وينادي ممرض، إنهم لم يعودا موجودين، إنه شيء غير ممكن بالفعل! نحن الآن في منأى عن العيون، وأنا بدأت في التعرق والهواء لم يبرد بعد، سوف تكون هناك عاصفة رعدية. ماذا كان يدور في رأسك في الحقيقة عندما أضرمت النار في الغرفة؟ هل كنت تدرك يا أبي خطورة ما فعلت؟ هل ما حدث كان عن طريق الخطأ؟ أم كنت ت يريد أن تعبر عن شيء ما؟

هل كنت ت يريد مضايقتهم، أم كنت ت يريد أن تقتل نفسك، تحرق نفسك حيا؟ إنه ليس رحيلا جميلا أو نوما هادئا أو وفاة مفاجئة سببها توقف القلب عن الخفقان، وليست كذلك موتا ساكنا في وسط أحبابك. إذن لتملك الذعر، و كنت سوف تصارع من أجل الهواء، في أفضل الحالات كنت ستختنق. من المحتمل أن النار كانت ستتشتعل بملابسك، هل كنت تعرف حجم الألم الذي كان سيلم بك؟ الحرق كان في العصور الوسطى وسيلة تعذيب. هل كنت ت يريد أن تكون بطلا؟ رجلا حقيقيا، بطلا أمام نفسك؟ أم في الحقيقة كان كل شيء مجرد مصادفة غبية، وعملاً أحمقاً؟ في وقت ما سوف تجيب عن أسئلتي، أريد أن أرى ماذا يدور في عقلك.

هنا على هذا المهد سوف أجلسك سريعا، هنا لن يزعجنا أحد. الآن ستصبح الجداجد الحقلية، يا له من مساء صيف رائع!

أقعد ثالتر الرجل العجوز بجانبه على المهد، برهة قصيرة ظلا هكذا جالسين، بعدها أخذ ثالتر حقيبة ظهره، وقطع بسكين الجيب فتحة في كلا الجانبين، كبيرة بما فيه الكفاية كي

يتمكن الأب من مد ساقيه من خلالها، ثم اختبر أربطة الحقيبة، وجثم على الأرض وألبس الحقيبة في ساقِي الأَبِ، وكأنها سروال قصير، ثم أدخل نفسه في الحمالات ورفع حقيبة الظهر التي بها العجوز عاليًا. حسنا، والآن يمكن أن يبدأ المشوار بشكل صحيح، أنا لا أكادأشعر بك فوق كتفي إنك خفيف للغاية، معك الآن يمكنني السير إلى نهاية العالم. أنت لم تعد محتاجاً لتطويق رقبتي، أنت لا تستطيع حفظ توازنك بسهولة، يكفي أن تستند بعض الشيء على كتفي، الآن لن يعطينا أحد. على الطريق مع الأَبِ الحي وليس كما كنت تقول لي، مع بقايا رمادك.

تخيل يا أبي العزيز؛ لو كنت سافرت مع بقاياك المتفحمة في جرة الرماد، ملفوفة في كيس بلاستيك من محقة جثث الموتى بنورد هايم في شارع ثاينتالر في اتجاه بوخيج بلاس، كما كنت تطلب مني وقتها. كان الموظف في محقة الجثث سيقول، التبديل مستحيل، لدينا نظام صارم، بالضبط كما في مستشفيات الولادة، هذا أبوك، ومن الممكن أن يقوم بنزع غطاء قنية الرماد، وأن يشير بإصبعه إلى داخلها، هذا هو أبوك، ليس هناك أدنى شك في ذلك. ورغم ذلك فهناك أيضاً من الأطفال الرُّضع من يتم استبدالهم دون قصد، فالبطاقات الملصقة على أسرّة الرُّضع تُفقد وتُضيّع. يلوح الآباء والأقارب إلى طفل مستبدل بابتسامة، وإلى قدر مستبدل أيضاً. وسيكون الانتهاء من الإجراءات الشكلية سريعاً إجراءات دون أخطاء. تسليم روئيني مع كلمات مرفقة معتادة، خالية من آية إحراجات ممكنة، وأية أحاسيس كاذبة، قصيرة وجادة. في البداية، الاستمارة، كي يبدأ كل شيء بشكله الصحيح. سوف أجعل

الاستمارة بين شفتٍّ، ليس عندي مكان آخر يا أبي العزيز، فأنا
أحتاج كلتا اليدين لحمل جرة الرماد.

كنت أخشى أن أمسكها بيد واحدة فتزلق مني. قال الموظف،
يمكنك أيضا وضعها في وضع أفقي، فهي مغلقة ببطاء محكم.
نحن نرسلها بالسُّكك الحديدية، وبالباخرة، وبالطائرة إلى كل
أنحاء العالم، صُنعت في سويسرا، حتى الآن وصلت سليمة إلى
كل مكان. سليمة.. يا لها من كلمة، فكرت أنا. لكنني لم أرغب
في إرسال جرة الرماد، كنت أرغب فقط في حملها، وفقاً لطلبك
الذي طلبته خلال نزهة، يمكن القول في لحظة احتفالية معينة،
إنها جميلة في زيورخ أوبرلاند، وذلك ذات صباح يوم من شهر
أغسطس، قبل عامين، هل تتذكر؟ تحدثت عندي إلى بشكل
مفاجئ محاولاً إقناعي.

كان يوماً حاراً مثل اليوم، والهواء يتحرك بقوة فوق قمم الجبال.
على اليمين، خور فيرشين، مع السينتس، بعدها جبال جلا رنز،
تابعة لسلسة جبال الألب، إيجر، مونخ، ويونج فراو.. كل بانوراما
جبال الألب. وفي أقصى اليمين غرباً، سلسلة التلال الناعمة
التي تنتهي ببفاتين ستيل، خلفها تأتي سلسلة إلبيس مع الكونتور
المعروف، يمينها جبل الأوتيل مع البرج وهوائي التلفزيون. هذه
هي منطقتنا، وطننا.. يمكن أن نسميها كذلك. تلك كانت رغبتك،
طلبك، واستخدمت الكلمة واجب الابن للتعبير عنها. لا يمكن جعل
كل شيء حياديًا بمزحة، أو بكلمة ساخرة، كما كان يحب كلانا
أن يفعل. كان الأمر بالنسبة لي، وكأن وترا يتمزق داخلي، وكأن
سوطاً يضرب عميقاً، يضرب الروح المسالمة، كان وكأنه لكتة
غادرة في الحجاب الحاجز. لكن هذا كله لم يكن سوى مزحة

سخيفة، هل تتذكر؟ أنا آمل ألا أموت في الشتاء، قلت ضاحكا،
وإلا فإنك سوف تتنزلق وتسقط معي، ونجرف سويا إلى المنحدر.
تخيل أنني أجبت على سؤالك، في ثقافات أخرى، يجب على
الأبناء حمل آباءهم عند الموت إلى أعلى الجبال. كنت قد تركت
المحرقة خلفي، وشعرت بثقل جرة الرماد، من خلال الحواف
الحادة لمقابض الكيس البلاستيك. والآن أمامنا أمتار قليلة
وندلف إلى الغابة، هناك سوف يكون الجو باردا بعض الشيء.
أشعر بدفع جسدك فوق ظهري، من خلال مادة النظبياون في
حقيقة الظهر. سوف أوضح لك كل شيء مرة أخرى، كما كنت
توضّحه لي سوف أشرح لك كل الأشياء، وسوف أمنحكها أسماء،
سوف يكون خشب التوب هو خشب التوب، وخشب الزان هو
خشب الزان، والكرز البري هو الكرز البري، سوف أستطيع
أن أفرق بين الأصوات الليلية، سوف أحدد لك بالاسم صرخة
البومة الصغيرة ونباح الثعالب الغليظ. النباتات والحيوانات،
الأرض والسماء. يمكننا التحدث عن كل شيء، فإذا يصير الليل
ليلا والنهر نهارا. تستطيع أن تطرح علي أي سؤال.

سأحاول أن أرد بكل صدق، أشياء كثيرة لن أعرفها، في
الحقيقة ما زلت أعتمد دائمًا عليك. لكن الآن سوف أنت
لنك، عندما تشرح لي أمرا. لن أشعر بالملل، ولن أسخر منك ولن
اعتبر نفسي أيضًا أذكي أو أكثر معرفة منك. وعند المشي يمكننا
قول ما لا يمكن قوله بينما عند الاهتزاز، ربما حتى بالصوت أو
بالضجيج. فقط يجب علينا أن نصفي جيدا. تقريبا لم نجد
أبدا المساحة الصحيحة لحديث مثير بينما، فاما أن يكون عراكا
صاخبا وإما أن يتوه كل منا في مونولوج داخلي. غالبا كان

الأمر يدور حول انتصار أو هزيمة. هل كنت في الحقيقة إنساناً متواضعاً أم مجرد ثرثار قلق؟

لقد كنت تقوم بجولات طويلة في المدينة، كان معروفاً عنك ذلك، كنت تجعل نفسك دائماً في حالة حركة كي لا تتفجر. أحياناً كنت أراك من بعيد وأنا في سيارتي تمشي بانحناءة لكن خطوات واسعة ومنتظمة. من حين لآخر كنت تأكل تفاحة، التفاح صحي وسهل الهضم وينظف الأسنان، هكذا كنت تقول. في الماضي كنت تتنزه مع كلبك الدوبرمان الذي قمت بتدريبه بنفسك، غالباً ما كنت تقرأ الجريدة على الطريق. أنا أقصد بشكل جاد، هل كنت تتدادي في كل نزهة: انشروا رمادي هنا، بالضبط هنا فوق هذا التل، وتشير لي بحركة من ذراعك الممتدة إلى الأسفل. بالضبط هنا! كان هذا المكان يبعد عدة مئات من الأمتار من كوخنا الريفي، منخفضاً بعض الشيء، عندما يميل الانحدار إلى أسفل. المنظر الطبيعي من هنا رائع وخلاب، لقد اخترت مكاناً صغيراً جميلاً بالفعل. كنت أنظر إليك من الجانب، مظهرك الجانبي كان مازال حاداً، أنفُ ذكري. كانت أمك تقول ذلك دائماً. رياحُ صباحية دافئة هبت عبر التلال، يوم صيفي رائع، الأشجار تتمايل برفق، كانت وكأنها تلوح لنا.

وفجأة صار وجهك قريباً مني للغاية، كان علي أن ابتعد برأسني، ناظراً إلى الحقول، عبر الغابات المختلطة وإلى القمم في الجهة الأخرى والتلال. نعم، لقد حملتني في الماضي إلى هذه الأماكن، هل يطلب إنسان من ابنه طلباً مثل هذا؟ هل تصورت أن هذا طلب واقعي؟ أم أنه فقط كان هتافاً وجداً؟ على كل حال كان هذا من سمات شخصيتك: بين المفرح والمضحك، بين

الأب

الغريب والحزين، أم كان الأمر يبدو فعلاً على هذا النحو؟ هل هي أمنية طبيعية لأب عجوز؟ في الوقت الراهن؟ لماذا لا تكون مثل كل الآخرين، ويتم دفنه في مقبرة؟ لقد كنتُ أسمع دائماً، انتشروا رمادي فوق البحر، أو انتشروا رمادي في حديقتي، أما أن تنتشروا رمادي في بارادا بلاس، فلم يطلب أحد هذا الطلب. ربما كان هذا دليلاً ثقة خاصة بالابن، ورمز تعلق حميم به.

هناك فوق التل سوف أخبره بذلك، كنت تفكير طوال الوقت في هذا الشأن. وعند المغادرة في ذلك الحين كنت تفكير في هذا. أم ربما جاء الأمر بطريقة عفوية، أم أن العاطفة تغلبت عليك؟ مناظر الطبيعة، الضوء، الابن، المزاج، ظلت كلماتك معلقة في الهواء كفقاعة كلامية مازلت إلى اليوم أراها أمامي، هذه الكتابة لا أستطيع إزالتها. بعدها مشينا برهة من الزمن صامتين جنباً إلى جنب. هل تتذكر؟ أرجوك، مرة ثانية لا تشتبث بي بهذه الطريقة، إنك تكاد تخنقني، هل ما زلت تتذكر تلك التمشية يا أبي؟ كنت أصفي إلى أنفاسك، كانت منتظمة بشكل طيب، كل شيء على ما يرام. فلم تلهث ولم يكن لديك صعوبة في التنفس. لكن فجأة، وكأنني سمعت خفقات قلبك تتبيض عالياً، لم تكن هذه في حقيقة الأمر سوى دقات مشفر السور الكهربائي، والتي دقت عندما انسلاناً عبر الأسلاك.

ذات مرة لمست السور المعدني وقلت إنه يؤلم، لكنه أمر يمكن تحمله، جرّب أنت أيضاً، على الأقل بعصا، فإنها تقلل من قوة الصعق الكهربائي بعض الشيء. وفعلت أنا ذلك، لكن الصدمة كانت قوية، وأحسست أنك خنطني. تماسك، فأنت صبي، احترس الأبقار! فقد حدث أن دهشت المارة المسلمين، لو اقتربوا من

البقرة قائدة القطبيع، ربما يكونون ثيرانا. ونظرت أنا إلى ملامح النوع كي أميز جنسهم: كل شيء على ما يرام، لا شيء غير ضرورة ثقيلة منتفخة. نعم، ماذا يحدث لو مشيت بكيس البلاستيك الذي تتدلى به الجرة التي بها رمادك، متوجهًا من المحرقة، عبر فينتالر شتراسه نحو بوخيج بلاتس؟ كنت أتخيل ذلك مرارا، عندما كان طلبك يلمع مثل يافطة مكتوبة بالضوء، عند النوم أو في أي وقت آخر. لقد كانت تظهر أمام ناظري فجأة.

يمكن الإحساس به خلال جلد الحذاء، طريا. هنا وهناك ترك إطارات السيارات آثارا سوداء عند المنحنيات عندما يسيل قطران تحت وهج الشمس. كنت غالباً أود لو مررت بجانب محطة وقود، وهناك كانت ستتفوح رائحة البنزين، ورجل يرتدي بنطال جينز أزرق و«تي شيرت» مطبوعاً بالألوان، كان ربما سيملأ خزان شاحنته التويوتا الصغيرة بالوقود. سيكون وقت الظهيرة، والحرارة استوائية، أكثر من ثلاثة درجة مئوية وغازات العادم تهتز بجانب محطات تعبئة الوقود. وسيكون الإسفلت تحت نعليّ متوجهاً بالسخونة، هذا في ذروة الصيف وأنا طفل، في ذلك الوقت كان الإسفلت أقل مقاومة للحرارة من اليوم. وسأكون على الطريق حاملاً كيس البلاستيك، متزهاً في المدينة برمامد أبيه، دائماً في حركة، حتى لا تتفجر روحه، دائماً على سفر حتى لا يمرض. لكن لن يكون في حوزتي تفاح، سيكون معي آيس كريم، والذي سيذوب أسرع مما أتمكن من أكله، والبسكويت الرقيق المحيط به سيصير رطباً، طرياً كما العلقة.

كان الأصدقاء يقولون دائماً، إنك تشبه أباك؛ نفس الخطوة، نفس ملامح الوجه، مع هذا كنت أود لو أصير مختلفاً، رغم

ذلك كنتُ أيضاً فخوراً: رجل حقيقي هكذا أيضاً. اليوم سوف أنشر رمادك، رغم سخونة الجو، سوف أصعد إلى التل، وأقوم بتقريغ جرة الرماد. أخيراً سوف تتأثر في كل الرياح، بعيداً، سحابة خفيفة، مثل سرب من البعوض. لماذا لا تريد أن يتم دفنك بشكل عادي؟ لماذا ترسل ابنك ذا الخمسين عاماً، بجرة رمادك في رحلة غريبة كهذه، لماذا تطلب منه شيئاً مثل هذا؟ لا يجعلوا من الأمر الصغير شيئاً كبيراً، انترو رمادي في كل الرياح!

تعتقد أنك تتصرف بصورة متواضعة، لكن في الحقيقة ما الأمر إلا مسرح كبير. ربما تمتلئ عيناي بالدموع فجأة في فينترال شتراسه، أو ينكسر بسكويت الآيس كريم الرقيق، ويسقط على الأرض، في الماضي كنا نأخذ عطلة عندما يكون الطقس حاراً مثل اليوم. لو أسرعت الخطى أكثر من ذلك لاهتز بقوة كيس البلاستيك في يدي من خلال الحركة الإيقاعية؟ وتصطدم جرة الرماد بفخذي أو حتى بركتي ويكون عليّ أن أشي ذراعي بعض الشيء، وربما يحدث لي شد عضلي وأن أقوم بتغيير الكيس إلى اليد الأخرى، أو أسير على مهل متزهاً إلى قلب المدينة؟ لكن عن أي شيء أتحدث الآن؟ إننا نسير معاً على الطريق، هرباً إلى زiyorخر أوبرلاند، إلى بيت عطلة نهاية الأسبوع. حتى وقت قريب، ربما قبل أسبوعين قليلة، كنت أعتقد أنني أفعل كل شيء أفضل منك، أفضل بكثير، ربما أكون تطوراً طبيعياً لك أو شكلًا متقدماً. كنت أعتقد أنه في الواقع ليس لديك فكرة عن الحياة، بالذات عن النساء، زواجك كان كارثة. الأمر بالنسبة لي كان شيئاً مختلفاً، على سبيل المثال مع مارا.

هل تتذكر؟ لقد قامت بزيارتكم مرتين في دار الرعاية، كل منا كان يفهم الآخر بكل معنى الكلمة وكأننا نتنفس برئة واحدة، ليس فقط أثناء فترة ولهنا الأولى، لكن أيضاً في حياتنا اليومية، كانت أياديها دائمًا تبحث عن بعضها، كنا نلمس بعضنا، كان كل منا يحب الآخر كثيراً وكنا في احتياج إلى ذلك. وباستمرار كنا راضين، وكان رضاناً يقترب من السعادة، هل تفهموني؟ متى يبدأ التغيير، هل تستطيع أن تقول لي ذلك؟ إنه ليس بالشيء المفاجئ. الدمار يبدأ خلف ظهرك، يزحف على نحو غادر، في البداية بشكل خفي وغير جليّ، لكن صدعاً يلوح فجأة، ومن خلال الكلام، تحاول أن ترآبه، لكنه يتسع، وفجأة يحدث شرخ وتصير شظايا الزجاج قريبة. عندما كنت تعود من العمل إلى البيت، كنت تريـد أن تتركك في هدوء، قبل الانفصال عن زوجتك، أمي، كنت تحبس نفسك في كلٍ مناسبة في غرفتك، يا إلهي، كم كنت أكرهك لهذا السبب، لقد كنت أرى أن هذا أمر مثير للشفقة.

عنـادك كان يجعلني غاضباً، وحزيناً، وأيضاً كان يجعلني خائفاً، ربما كنت في ذلك الوقت يائساً، شيء في داخلك كان مقتولاً، وأنا لم أستطع إدراك ذلك، من كان على حق؟ كان الأمر يدور دائمـاً حول هذا السؤال. في الحقيقة، لم يكن سؤالـاً ضروريـاً. زوجتك كانت ترى الأمور بعيون أخرى، في البداية كنتما تحبان بعضـكما، بعدها بذلتـما جهداً كبيرـاً، دون مردود.. أليس هذا شيئاً فظيعـاً؟ هل هذا شيء عادي؟ مازال الطقس حارـاً، لكن ريحـاً تهبـ هناك، سوف تحدث عاصفة رعدـية، أنا على يقـين من ذلك. أبي، هل ترى كيف تتمـايل الأشجارـ هنا وهناكـ، وكيف تتأرجـح جذـوع الأشجارـ الغامـقة وكأنـها ثملـة؟

هل تسمع ماكينات الحصاد؟ على الفلاحين الآن أن يسرعوا، لو أرادوا حصد المحصول قبل نزول المطر.

نعم، في البداية يحدث صدعاً، وخلال الشكوى الدائمة يصبح شرخاً. فقط ودائماً ليس هناك غير شيء واحد في رأسك؛ الجنس أو الطعام. جاء هذا الهجوم فجأة من مارا أثناء تناول الإفطار صباح اليوم. شعرت بالحرج، أكثر من أي وقت مضى، أحسست أنها جرحتي. لقد تعودت دائماً على سماع هذا اللوم من النساء، خلال عمري الذي يبلغ أكثر من خمسين سنة، وتعلمت كيف أتغلب عليه. في منطقة أوبرزيه عند لاخن بدأ البرق بالفعل، الآن تركنا الغابة الصغيرة خلفنا. هل ترى كشافات النور لماكينات الحصاد هناك على الحقول تحتنا؟ عليكم بزيادة السرعة، حطموا أرقامكم القياسية، يجب أن يتم حصاد المحصول، وإلا فسوف يصيبه العفن في الحقول، وسوف يصيب الفطر السنابل. إن لم تقطع قاطعات الماكينات المحصول بشكل صحيح فسوف تتدخل شركات التأمين، عليكم بزيادة السرعة! مراراً أصل إلى نفس النقطة يا أبي العزيز، والتي فيها تهار أرض العلاقة فجأة. ليس هذا بالشيء الجميل، ولا يمكن أن تكون النساء وحدهن هن السبب، بالتأكيد أنا أيضاً. خبرتي وحدها تعجز عن مساعدتي، أنا أيضاً صرتُ أكثر مقاومة في هذه الأمور، صرتُ محصناً، محصناً ضد نفسي. كيف كان بإمكانكم حلّ هذه المعضلة، قبل ثلاثين أو ستين سنة يا أبي العزيز؟ دائماً ما تأتي هذه النقطة والتي يتحول بها كل شيء إلى وضع منحدر مهدد، والتي يصبح فيها الصدعاً شرخاً. أيضاً الإثارة الجنسية لا يمكن بالشامبانيا إنقاذهَا، تتزلق الكؤوس

ولا يمكن عمل شيء، والآن أصبح كل شيء مسكوناً. كل التعبيرات الطويلة، والمصالحات وهذه الخلافات المتتجدة. أيضاً صباح اليوم عندما قالت لي مارا هذا، حتى الآن كنت أعتقد أن الحب يعني لها مثل ما يعني لي، على الأقل نفس الأهمية، ثم يأتي ما قالته لي عند تناول الإفطار بالهجة قاطعة، أنا أحتاج عزاء الحب كما يحتاج آخرون عزاء الدين.

وعلى نحو مفاجئ نظرت إليها بعيون أخرى تماماً، إنها ليست رائعة الجمال. عمرها لا يمكن إخفاؤه، بالذات في الصباح، تبدو خطوط قاسية حول فمها. وعلى حين غرة ينطفئ البريق ويزول السحر، وتسوء العلاقة، وتصبح النظرة غاضبة. هل تعرف هذا يا أبي العزيز؟ الآن، فهمت ذلك يا أبي وتوقفت عن التشبت بي، أنت تجلس بحرية فوق ظهري، هذا شيء طيب، بهذا الشكل يمكننا السير لساعات طويلة. دعني أكمل الحكاية:

هل تريدين مزيداً من القهوة؟ سألتها بصورة رسمية، وحتى يصبح الجوًّا محايضاً، ومن أجل الابتعاد عن رائحة العلاقة النتنة وقفت وقمت بعمل ثقب بالسكين في مسرب حوض الغسيل بالمطبخ، والتي كانت بقايا أوراق الخسّ والمعكرونة عالقة به.

إنني في الواقع إنسان سريع الغضب، مثلك يا أبي العزيز. من الأفضل لي لو كنت هويت بيدي فوق الطاولة وصحت: انصرفي إذن، أنا لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم. والآن صار مسرب حوض الغسيل بالمطبخ نظيفاً، وبصوت شفطة واحدة أصبحت المياه تجري ثانية بسرعة. قالت مارا أنت ستكسر السكين، في ذلك الوقت كنت أريد أن أسألها إذا كانت تريد أن تمارس معني الحب. لكنني الآن ألقيت بالسكين على الأرض بكل قوة وصرخت:

الأب

لو تفوهت بجملة واحدة بعد الآن فسوف أنقض عليكِ. لقد كان هذا شيئاً غير طبيعي. برمي مكبس ماكينة القهوة وكأنني أغلقت مصراعاً مدفعاً. في الحقيقة خسارة، سمعت روحي تقول فجأة، بينما سالت القهوة متقطرة في الفنجان، ماذا تعني بكلمة خسارة، سألت ماراً. أوه! قلت أنا، لا أقصد شيئاً، وأوقفت عمل ماكينة القهوة. في الحقيقة خسارة أننا لم نعد نحب بعضنا كما في الماضي.

عندما كنت أريد أن أقترب منها، كانت لا تتقبل هذا الاقتراب، وكانت تعبّر عن هذا إما عن طريق الإشارات وإما بالكلمات. كان يحس نفسه دائماً في دور المتسلل، هل تعرف هذا يا أبي العزيز؟ بطريقة أو بأخرى لابد أن الذنب ذنبي. مرة ثانية يلمع البرق من بعيد، أعتقد أنه الوميض فقط، الصاعقة الرعدية الحقيقية لم تبدأ بعد.

استمر فالتر في السير حاملاً أبيه على ظهره ورأس الأب مستند على كتفيه، استمر في السير في ممر عبر الحقول صاعداً في اتجاه زiyorخر أو برلاند على البحيرة. وما زال يتحدث إلى الأب، مكملاً الحكي، كيف كان الأمر يبدو، لو أنه حقق رغبته الأخيرة: ربما صعدت إلى الترام، ووضعت جرة الرماد بجانبي على الأرض، ولكنني أحسست أن تصرفي هذا غير لائق، ربما وضعتها على المقعد بجانبي، دون أن يلحظ أحد، لكنني في النهاية قررت أن أضعها فوق ركبتيّ وقبضت عليها بكلتا يدي. تيار هواء خفيف كان سيجفف العرق على جبين المسافرين المتقاعدين.

في المقعد الأمامي كانت ستحاول أم الإجابة على أسئلة طفلاها بصبر. وأراد بعدها شاب أن يصعد إلى الترام حاملاً جهاز راديو

تحت ذراعه، وللحظة بقي واقفا على سلم الترام دون أن يصعد، وأدار صوت الموسيقى عاليا، لعن البنوك بصوت عال، وشتم بابا الفاتيكان، وفي النهاية صعد إلى الترام، وأكمل لعنته. صرخ، وأدار الصوت بدرجة أكبر، نظر المتقاعدون بخجل إلى الأرض، أحدهم أراد بشجاعة أن يتوجه إلى هذا المزعج، لكن زوجته شدته من الأكمام.

بدأ الطفل في البكاء، جلس الشاب واستمر في صراخه وأخرج ما فyi داخله من خطب مليئة بالكراهية، الكل نظر بسخط، ربما كان الشاب ثملا، شيء ما ليس على ما يرام معه. قلت في نفسي، فقط لا تنظر إلى هناك وإلا وقف واتجه ناحيتي. إن التقاء نظرات العيون يجذب مثل هذه النماذج، إنهم يشعرون أن أحدا يتهدأهم، في المحطة الثانية صعد اثنان من الهندو الحمر البيرونيين بعباءتيهما الملؤتين، من موسيقيي الشوارع، كانوا يريدان القيام بأداء أغنية، لكنهما لم يحاولا، بسبب الضجيج الصاخب، لصوت الراديو، حتى مداعبة أوتار الجيتار. أدارا وجهيهما ثانية ناحية الباب كي يتمكنا من النزول في المحطة القادمة، لكن الشاب الذي يحمل الراديواكتشف وجودهما وأمطركهما بوابل من الشتائم. آمل إلا يفهموا اللهجة، فالهنود الحمر في الأساس أناس مسلمون، لا يمكن لأحد استفزازهم بسهولة، لكن المتقاعد العجوز الذي أراد أن يتدخل من قبل، استطاع الآن أن ينتزع نفسه من زوجته، ووقف أمام الشاب الغاضب وطلب منه بلهجة حادة أن يخفض صوت الراديو العالي وأن يتوقف عن شتائمه. فكرت في نفسي، أنا لا أستطيع حتى التدخل.

بجرة الرماد التي بها رماد أبي فوق ركبتي، عاجز أنا تماما.. في سخونة المعركة يمكنني في الواقع أن أسيء استعمالها كسلاح بآن أهز كيس البلاستيك في الهواء وكأنه حجر للرمي. شخص ما يجب أن يساعد هذا العجوز الشجاع، نعم إنه كان يمكن أن يكون أبي، إنه شخصية مشابهة وأنا سأمسك جرة الرماد بيديّ بقوة، وهذا السوقي، ربما السكران أو المختل عقليا سيقف فجأة ويصفع بكف يده العجوز المتقادع على وجهه. أسمع صوت صرخة تأتي من فم، والتي غطت على صوت مكبر الراديو، لم تكن هذه إلا أغنية من موسيقى الراب، كان موقعها في سباق الأغاني على القمة. لكن الآن يجب أن أساعدده، نبضات قلبي دقت فجأة بعنف، دفعة أدرينالين. لكن في نفس اللحظة رد المتقادع الضربة، لم نكد نراها، قبضة يده اتجهت بسرعة إلى الأمام، بالضبط في المكان الصحيح، وقع الشاب وسقط في مقعده إلى الخلف، انحني ولهث باحثا عن الهواء، أبطل المتقادع الراديو وقال: هكذا! أكمل الطفل صراخه، وبدأ الهنديان في مداعبة أوتار الجيتار، وقاما بغناء أغنية تحفظها الأذن عند سماعها (جوانتانا ميرا) وأنا قمت بتخفيف قبضة أصابعي التي أحكمتها حول جرة الرماد. مسحت زوجة المتقادع جبين زوجها، والذي عاد ثانية للجلوس بجانبها، بمنديل منعش.

ومررنا بال ترام على نصب ألفريد أيشر التذكاري في اتجاه هاوبت بانهوف، الشاب السوقي السكير أو المختل عقليا، تمكّن من الوقوف مرة أخرى، أخذ الراديو وقام بتعلية الصوت لأعلى درجة وذلك قبل نزوله مباشرة، وكأنه يعلن احتاجه الأخير. صوت الآلات الموسيقية العميق يدق بقوة، وصوت الراب يحدث

صغيراً وخشنخشة وضجة عالية وطرق بشدة، وصوت الراديو الذي كان يشبه الصراخ، كان مسموعاً حتى أثناء انطلاق الترام. هل لك أن تخيل، في أي موقف كان من الممكن أن تضعني فيه بطلبك هذا يا أبي؟ كان الشاب قد نزل من الترام، وكذلك المرأة مع الطفل كانوا قد تركا الترام بسرعة.

الآن المتقاعدون وحدهم كانوا ما زالوا هم الجالسين، المسافرون الذين كاد الشاب أن يفسد يومهم: هذا هو الصحيح. يجب على المرأة أن يدافع عن نفسه وألا يتسامح في مثل هذه المواقف! فجأة انتابني إحساس، لكانهم ينظرون ناحيتي، كأنهم يقصدونني، بالتأكيد فكروا في ذلك، إنه هو الأصفر سنا هنا، كان عليه أن يظهر بعض الشجاعة. لماذا ينظرون إلى هكذا؟ ربما يعتقدون فجأة أنني مشبوه، ماذا يحمل هذا الشخص فوق ركبتيه؟ بالتأكيد هو عاطل عن العمل، ماذا يفعل في الترام قبل وقت الغذاء؟ كلا، ليس هناك شيء خطأ، كل شيء على ما يرام، أنا لم أقم بسرقة شيء. في الحقيقة أنا لم أسرق أبداً في حياتي، انظروا هنا، إنها ليست جثة طفل، إنها جرة رماد أبي، وأنا ابنه الشرعي، انظروا على هذه الاستمارة يوجد اسمه، تاريخ ميلاده، ويوم وفاته.

وها هي بطاقة هويتي، أنا أحمل نفس اسم العائلة، حتى إن اسمي الأول هو نفس اسم أبي، إنها أيضاً ليست قنبلة، وكل شيء على ما يرام. كنت أخشى فجأة أن يقف الرجل الشجاع مرة أخرى ويتوجه نحوه، وتمنعت مرة أخرى زوجته، أم أنتي تخيلت كل هذا فقط؟ كلا، إنهم ينظرون نحوه كلهم، إنها نظرات المسافرين التقليدية بوجوههم المشابهة، إنها تعbirات وجوه المتقاعدين

الراضية، إن ملابسي نظيفة، وسحّاب سروالي مغلق، أنا في الواقع لست أنيقا بالضرورة، ولكن تحت أي ظرف من الظروف لست متشردا، هكذا يسير في الشارع اليوم رجل في الخمسين من عمره في محيط معارفه. الشعر خفيف بعض الشيء، لكن لا يمكنني تغيير ذلك، لقد غسلت شعري في الصباح، ها هو، انظروا، إنه ليس دهنيا على الإطلاق، فهو يستقر خفيفا فوق المفرق رغم سخونة الجو، الآن كادت جرة الرماد أن تتزلق من فوق ركبتي.

لماذا تحملقون في بهذا الشكل، كان بودي لو أصبح عاليا. وكان الكل سينظر نحوي، هذه ليست قنبلة، وبالفعل كنت سأقوم بإخراج جرة الرماد من الكيس البلاستيك، والناس كانت ستميل إلى الجانب متفاديه، وكانوا سيفطون وجوههم بأيديهم، بعضهم كان سينبطح أرضا كردة فعل، هذه ليست قنبلة، إنها هقط الجرة التي تحوي رماد أبي، أيها المغفلون! هل رأيت يا أبي في أي موقف كان من الممكن أن تضعني فيه، برغبتك الكريهة، وطلبك السخيف هذا من ابنك! ليست هناك نسمة هواء، يا له من اختناق في الجو، سيصير الطقس أفضل لو هبت عاصفة رعدية. درجة الصفر على ارتفاع 4000 متر، حتى على قمة جبل يونج فراويوخ بدأت الثلوج في الذوبان، وعلى قمة إيجر نورد ثاند بدأ الماء يقططر من كتل الثلج المذلة، إنها تقطر على أنفاس متسلقي الجبال.

يا أبي العزيز لن يصبح من السهل أن تخرج من هذا الموقف، ببساطة أنت تلعب قليلا بالنار، وببساطة تحرق وتموت. لا يستوي الأمر هكذا، ماذا تعتقد في الحقيقة؟ أنا أريد استجوابك بصورة

صحيحة مرة أخرى، أنا الآن الأمر الناهي بشأنك، يمكنني انتزاع الحقيقة من أعماقك، وأن أقيد حركتك، ولن تتمكن من الفرار مني أو الهرب بعيداً، الآن أنت تحت إمرتي. أنا أستطيع أن أبدأ في الركض، وأن أجري معك، حتى ينتابك الخوف والفزع وأنت فوقني، حتى تتأرجح هنا وهناك، ويندفع رأسك مجيئاً وذهاباً، حتى تتبول على نفسك في السروال، في الحفاضات! أو ربما تجد أن هذا شيء مسلٌّ؟ هل تستمتع بالركض، ما رأيك، إلى أين ستقودنا هذه الرحلة؟ هل تريد أن تنزل ثانية من فوق ظهري، لقد فات الأوان. خطوة خطوة نقترب من الوصول. حتى في هذه الليلة سوف نصل إلى الكوخ الأثير لديك، عندما تدور ماكينات الحصاد دورتها الأخيرة، وعندما تسقط قطرات المطر الأولى الثقيلة من سماء الليل، عندها تكون بالفعل قد وصلنا، أليس هذا حقيقياً، أكان من الممكن أن يحدث هذا، لو كنت أحمل جرة الرماد في الترام؟ كان المتقاعدون المسافرون سيتركون مقاعدهم، إنهم مازالوا مفعمين بالحيوية، كانوا سينظرون نحو باستغراب، أما جرة الرماد فكنت سأدخلها ثانية في الكيس البلاستيك، وكانت ستستقر مرة أخرى فوق ركبتي المضمومتين، كل هذا كان مجرد تخيل فقط، إنهم لن ينزلوا من الترام بـسيبي، لكن لأنهم وصلوا إلى نهاية رحلتهم، أو أرادوا تغيير وسيلة المواصلات إلى ترام الضواحي. كان ينبغي عليّ أن أمشي هذه المسافة على الأقدام رغم سخونة الجو، في أي وسيلة مواصلات عمومية، يعتبر أي فرد شخصاً مجهولاً، الكل يحملق فيك، وتصبح نهاياً لخيال كل رجل وامرأة، هذا الخيال لا يمكن مراقبته، عندئذ تصبح بلا حماية وتحت رحمة الآخرين، لكن الآن صرت وحيداً

وأستمتع برحلي، برد جسمي قليلاً من تيار هواء خفيف، وألقيت نظرة وأنا في الترام على المقاعد الزوجية المتراسة الفارغة أمامي، الأعمدة المصنوعة من الكروم، للمسافرين الواقفين تشعل برودة مريحة وصرامة.

كنت على وشك أن أرتكب أفعالاً حمقاء، عندما كانت عربة الترام تلفّ في المنحنى بسهولة ويحتك معدن عجلات الترام بمعدن القضبان محدثاً صريراً. أبي، هل يمكن أن أكون قد صرت مجنوناً، وحيداً في الترام، في الطريق مع رمادك، في الطريق باتجاه تيفين برونن، نهاية الخط؟... مات فجأة، سوف يقال وفاة قلبية، ما يسمى الموت في لحظة، في الواقع هو موت جميل في هذا العمر، لم يسقط، ظل سليماً الآخر لحظة، لقد كان مغامراً، إنها حقاً وفاة جميلة، مرة أخرى يلمع البرق، شيء مدهش رؤية الحقول وهي تُضاء فجأة، ربما يهطل مطر طويل بعد العاصفة الرعدية. بعد هذه الفترة الساخنة يجب أن يبرد الطقس ولو مرة، هل مازلت يا أبي تتذكر، كم كنت في حالة معنوية عالية في ذلك الوقت؟ كم كنت سعيداً، عندما قمنا معاً بالتنزه في أحد أيام الصيف في زيورخ أوبرلاند، كنت تحس بسعادة جسمانية، كنت تدفعني بكتفيك في بعض الأحيان، عن غير قصد، أثناء المشي، كنت أحس بقميصك الذي تفوح منه رائحة العرق، وبذراعيك وكتفيك القويتين، اللتين كانتا مليئتين بالعضلات. نعم، لقد كنت أحس دائماً أنك قريب مني، كعملاق، وأحياناً كنت بعيداً جداً، كأحد أبطال أفلام رعاء البقر، والذي يختفي في الأفق. كانت العلاقة الحقيقية بيننا دائماً مصادفة. ربما للحظات، كما خلال تلك النزهة، تصير هذه السعادة القصيرة

الملعونه بين الأب والابن نوعا من أنواع الاتصال الكهري. لكن أنا أريد أن أكمل نسج قصتي، حكايتها، وماذا كانت ستتصير مع جرة الرماد في الترام.

دخل الترام في الدورة الأخيرة بمحطة تيفين بروزن محدثا صريرا، وددت لو بقىت جالسا، قلت في نفسي، وأظل مسافرا بال ترام عبر المدينة من نهاية محطة إلى أخرى إلى الأبد. أقرأ كل لوحات الإعلانات، التعليمات، واللاحظات في عربة الترام، وأحفظها عن ظهر قلب، أنظر من النافذة، وربما أفكر في أخي وفي الخطاب الطويل الذي قمت أنا بكتابته له منذ عشرين عاما. إنه لا يستطيع أن يكون معنا الآن، كي يلبي رغبة أبيه الأخيرة، فإعاقته لا تسمح له بذلك، والخطوات القليلة التي يخطوها بمساعدة آخرين لا تكفي. أنا لا أستطيع أن أدفع كرسيه المتحرك في مكان وعر مثل هذا وشدید الانحدار، فالحصى في الطريق سوف يعوق سير العجلات الأمامية الصغيرة، وأكون مضطرا إلى حمله، وهو الذي سيصبح عمره أربعين عاما. وكما كنت أحمله في الماضي عند الذهاب إلى المدرسة، لقد كنت مضطرا لتركه عند الأم والتي هي الأخرى غير قادرة على المشي، وتجلس في كرسي متحرك أيضاً منذ سنوات طويلة.

نعم، أخي العزيز: الشلل الدماغي، كلمة كان لم يكن مسموحا باستخدامها خارج أسرتنا. نعم، كانت الناس تعتقد أن حجم رأسه غير طبيعي، إنكم لا تفهمون شيئا، أنا أعرف الناس غير المثقفين، كانت الأم تصيح، إنه شلل حدث أثناء الولادة، سبعة أشهر تحملته يا أمي في الرحم، وذات يوم أحد تمت ولادته. هل يبقى مولود ذو سبعة أشهر على قيد الحياة؟ محتمل ولكن

ليس مؤكدا، قال الأب. كنا خائفين عندما لمحت نور الدنيا، كنت حذرا، ولذلك لم أعتبرك في البداية موجودا، لأنك من الممكن أن تختفي مرة أخرى، فقط لا لإقامة علاقة معه، في جهاز التحضين، كان شكلك يبدو كأحد أطفال الهنود الحمر الرُّضع، كان لونك أحمر كسرطان البحر، فقط مغطى بمئزر أبيض. رأسك النابض كان هو المقياس لقدرتك على البقاء حيا، في الواقع كنت ممنوعا من زيارتك في مستشفى الأطفال، ولكن تم السماح لي بالزيارة كحالة استثنائية. من يدري، لقد كان من الواجب أيضا أن يرى يوما أخيه الأصغر.

إن مرض اليرقان غالبا ما يصيب حديثي الولادة، علاوة على ذلك فإن هذا لا يعني شيئا، إن هذا لا يعني شيئا، كنت أكررها لنفسي دائما. فقط لا تدع مشاعرك تجاهه تَّمُ، إنه من الممكن أن يختفي في أي وقت مرة أخرى. ويأتي هذا الرأس الغريب الذي ولدت به، كالمنطاد، هكذا أطلقت عليه المرضة، هل سيبقى على هذا الحال، أخي بمثيل مؤخرة الرأس هذه، لا أريده على أي حال. لا أحد في فصلنا المدرسي لديه أخي غريب بهذا الشكل. لقد كان من الأفضل، لو كان قد مات في الحال. للأسف، قال في نفسه: لقد مات في سلام، لم يكن بالمرة إنسانا سليما. كلام فارغ، قالت المرضة، سيعود الرأس طبيعيا بعد فترة من الوقت، هذا شيء عادي بالنسبة لحديثي الولادة.

كان من الممكن أن يكون موتك أفضل لي؛ شيئاً مؤكدا إلى حد ما، من كان يستطيع أن يتبع بما سترتبه من حماقات! كان من المحتمل أن يتقبل الوالدان فكرة موتك، فقط ستكون واقعة أليمة، قلت في نفسي آنذاك. وأوصد الأبواب في الترام، وأبقي

جالسًا فيه، سأسافر من نهاية محطة إلى نهاية محطة، دائمًا نفس المسافة، مثلك يا أخي العزيز في كرسيك المتحرك في بيت والديك.. من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، من غرفة الحمام إلى غرفة النوم، مسار حياة مرسومٌ لك بالضبط، محدودٌ بسبب إعاقتك، بسبب خوف وقلق الوالدين، وبسببك أنت نفسك وكل الأسرة. ليبق الوضع كما هو دون تغيير، ولا يحدث شيء غير متوقع. مجرد رحلة بسيطة إلى قلب المدينة تعتبر بالنسبة لك رحلة إلى المجهول، دائمًا نفس التجهيزات، نفس سائق التاكسي، نفس السيارة، نفس التسلسل الكامل للطقوس. إن موت الوالدين كان من الممكن أن يكون بالنسبة لك فقداناً لأساس الحياة على الإطلاق.

الآن وددت لو قمت بتقليل أخي، وبقيت جالساً في الترام، وطردت كل الركاب الصاعدين إليه، وعطلت كل الأبواب الآوتوماتيكية، محمياً كما في حوض زجاجي، متقللاً بين أحيا زيوني السكنية. لم يعد ممكناً أن يحدث لي شيء، سأمسك بجرة الرماد فوق ركبتي، مثل أحد المقيمين في مستشفى المجانين وهو يمسك دمية الدب الوردية الخاصة به والمصنوعة من القطيفة. سأكون محمياً في عربة الترام هذه كما في قفص فارادي، لا شيء يمكنه الوصول إلىّ، ولا يستطيع أحد أن يمسّني، وربما أنادي: لا تقتريوا مني! لا تضايقوني! لا تلمسوني! في الكيس الذي أحمله توجد قنبلة. أنا على الطريق وسوف أحافظ على النظام نهائياً وعلى نحو حاسم. ينبغي أن يحدث شيء يا أخي العزيز، العالم أصبح خارج السيطرة، ويحتاج لفرقة، كي تعود الأشياء إلى طبيعتها مرة أخرى.

سأسافر عبر تسفينجلي شتاد، ولنقل إن الوقت سيكون منتصف النهار، والشوارع مكتظة بالناس، يمشون يهرولون، يضحكون، مناظرهم عابسة، كما في متحف الشمع. الكل يتحرك وفق قواعد اجتماعية نفسية دقيقة كالعميان، سوف أفتح لهم عيونهم، مثل قاتل أوكلاهوما، مثل الأصوليين الدينيين، وكما منظمة الألوية الحمراء في الماضي، سسوف يقع اختيارهم علىٰ، سسوف أنسف نفسي في الهواء مع القنبلة، سأقوم بتضخيم كبيرة للغاية، دمي المُراق في كل مكان، وأشلاء جسمى وعظامي المتاثرة في كل اتجاه سوف تقوم بالخلاص وتفك التعويذة. أخي سوف يتمكن فجأة من استخدام كل طاقة جسمه، وقوة ذراعيه، ويديه ونقلها إلى عجلات كرسيه المتحرك وسوف يسرع في الخروج أخيراً من بيت أبيه، تاركاً وراءه كل شيء، طاولة خشب الجوز من الخمسينيات.

وطاولة الطعام ذات المفرش البلاستيكي المزهر، والسجادة الفارسية المهترئة وفوقها آثار كرسيه المتحرك، وكمبيوتر آي. بي. إم وماكينة الطبع ذات الصوت المزعج والحركة الكثيرة، إنها بقايا العصور الحجرية. نعم، لقد تراكم شيء ما في نسيج جسمه عبر السنين، تكونت مادة متفجرة. ذهاباً وإياباً، سوف أترك نفسي في الترام، ستكون الرحلة بلا نهاية، وزيوريخ هذه لن تنتهي أبداً. في الليل سسوف أترك نفسي ليأخذوني إلى كراج نهاية الخط. سسوف أرقد في الظلام بين المقاعد على الأرض مستلقياً، وعمال النظافة لن يكتشفوني، عليهم أن يتركوني وشأنى، بمكانتهم الكهربائية ومنظفاتهم وممساحتهم وفوطهم القماشية.

فيما كنت تفكري يا أبي في الواقع؟ وماذا كنت تقصد بكلمة واجب الابن هذه؟ هل كانت عاطفة مفاجئة؟ أم كانت مسألة حقيقة مثيرة للقلق؟ أم أنها رغبة أخيرة؟ وصيةأخيرة؟ وهل يجب أن تتحقق على الإطلاق؟ ألا تكون أيضا لدى الابن بعض الحرية؟ أم أنه أرسلتني لهذه الرحلة بنوايا شريرة؟ أم كان ذلك أمراً تربوياً؟ لقد دفعت بكل الاعتراضات جانباً أشياء نزهتنا في زيوخر أوبرلاند.. لم تقبل بأي شيء. حتى الإشارة إلى أن حفيداتك ربما يردن زيارتك فيما بعد، لم يغير هذا من رأيك شيئاً. كنّ يردن معرفة أين الجد مدفون بالضبط، ولا يرغبن عند زيارة قبره في كل مرة أن يقمن بعملية تسلق للجبال تستغرق عدة ساعات. ماذا قلت؟ هل أسمع الآن أصواتاً، أم بدأت في الكلام بالفعل مرة أخرى؟ هل يجب تنفيذ الوصية الأخيرة؟ أم يمكن الكذب فيما بعد، والغش؟ هل أقوم بتفريغ جزء من الرماد فقط؟ وأعود بالبقية لدفنها في مقبرة عادية، ألا يُسمح لي بأن أكذب عليك فيما بعد؟ هل يجب أن أطيع أوامرك حتى بعد موتك؟ أين

من الممكن أن يكون الاستقلال ممكنا دون نعمة الكذب؟ أنت نفسك جعلت حماتك تُحرق حينئذ، رغم أنها كاثوليكية، وكانت ترغب في أن تُدفن، لقد قلت إن هذا شيء غير صحي، وعلى أي حال هي الآن ميتة، ولم تعد تشعر بشيء. هل ترى؟ أنا أيضاً في إمكانني أن أقول ذلك، هذا شيء غير وارد، لا للتبذير، قبر عادي لجرة الرماد. وأنا طفل، كنت الحظ، ولحسن الحظ، أنه كان يجب ألا أفعل كل ما كنت تأمرني به، لقد منحني الكذب حرية لا يمكن تخيلها، وكان بالنسبة لي ضرورة للبقاء على قيد الحياة. هل قلت شيئاً يا أبي العزيز؟ هل تبدأ مرة أخرى

في التحدث؟ أنا لا أسمعك جيدا.. صوت محركات ماكينات الحصاد يغطي على كل شيء.

أما أخي فلا يمكن أن يكذب، لقد حُرم من نعمة الكذب، فقط لديه الخيال. في البداية كان عليه أن يتعلم اللغة الألمانية؛ لغته الأم، ثم جاءت اللغات الأجنبية التي كانت بمثابة السلالم للخروج من هنا. والآن، للخروج من محدودية حياته اليومية، كانت عبارة عن درج إلى السماء، يصعد على تركيباته اللغوية، درجة بدرجة، وهناك في القمة لا يحس فقط بحرفيته، لكنه يخشى أن يسقط إلى القاع، وأن يضيع في تجارب النصوص المكتفة كما في حياته الواقعية. لم تكن الجمل والكلمات مجرد إغراء له فقط، ولكنها كانت في ذات الوقت تجسد له خوفاً وتهديدًا، لقد صار أخي مرهف الشعور وذا روح حساسة.

هل ينبغي أن أضع جرة رمادك فوق طاولة مكتبه؟ أم خلف الكمبيوتر بجانب وعاء حفظ أقلام الرصاص وأقلام الحبر ومشابك الورق والمحایات؟ وهل سيترك أخي جرة الرماد في موضعها أم سيقوم بتخبيتها؟ ربما في درج المكتب، بجانب الصور القديمة؟ أم يدفعها بعيداً من فوق الطاولة بحركة من ذراعه وبشكل غير موقر، عن طريق الخطأ أو متعمداً، وتتحطم جرة الرماد فوق الأرضية الخشبية خلف المكتب، وتختلط بقايا رمادك يا أبي بتراب الشقة. نعم، أخي لا يستطيع أن يكذب، لكن صدقه هذا يقبض روحي! هل قلت شيئاً يا أبي العزيز؟ وهل ستبدأ مرة أخرى في الكلام؟ أنا لا أستطيع أن أفهمك، عليك أن تتكلم بوضوح، ماذا تريد أن تقول لي؟ في النجوع المحيطة، والقرى، والأماكن السكنية بدأ الناس في الاستعداد للنوم، حملوا

كؤوس الجمعة وأكواب الشاي من المناضد الصفيرة أمام جهاز التلفزيون، إلى المطبخ، وقاموا بوضعها في حوض الفسيل وفي ماكينة غسيل الأطباق. قاموا بحك بطونهم أو ظهورهم أثناء ذهابهم إلى غرفة الحمام أو قاموا بجولة في غرفة المعيشة، أو بحثا عن شيء ما، أو قاموا بتدوين شيء ما، وقاموا بتجهيز ملابسهم لليوم التالي. هل تذكر يا أبي، قبل عشرين سنة، قمت بكتابة خطاب إلى ابنك الثاني، أخي.

وعلى نحو مفاجئ وضع موقفه لي، في يوم من الأيام بعد الظهر كنت نائماً نوماً خفيفاً على السرير، وأسلمت نفسي لتدفق أفكاري الهادئ. وهنا توقف الفيلم فجأة، وحدثت هزة، وكأن شيئاً يشبه آلة نقر معدنية ضخمة يقرع في أعماقي، وأحسست أن رأسي على وشك الانفجار بسبب الصوت، وال WAVES الصوتية سدت خلايا جسمي، حتى اليوم مازال دويها في أذني: أخي العزيز، لا يمكن أن يستمر الوضع معك بهذا الشكل، هكذا لا إن هذى ليست حياة بالمرة، أخي العزيز: بإصرار بقيت على قيد الحياة، ومن يوم آخر كان علىي أن اعتاد حياتك معي.

في تلك الأثناء كان موتك سيصبح حالة حزن حقيقة، ولم يكن متاحاً لي أن أهرب من ذلك، لكنني لم أكتشف أية تغييرات إيجابية برأسك الذي يشبه المنطاد، ربما يكون ذكياً بشكل بارز، عبقرية موسيقية؟ أو عالم رياضيات؟ أما مؤخرة رأسي أنا فهي مسطحة بعض الشيء، كان علىي أن أعترف بذلك بصراحة، هل هو يجسد منافسة حقيقة لي؟ أم هو فرصة؟ لقد كنت أخي رغم كل شيء، ومن جوانبك الإيجابية صار في إمكاني تعلم الكثير منك، هل ستختفي عيوب الولادة المبكرة مع الزمن؟ هل

۱۰۷

سيأتي يوم ما لا نجد فيك شيئاً لافتاً للنظر؟ هل سيصبح أخاً طبيعياً؟ ولا يسبب لنا العار؟ أم سنظل كلنا في المستقبل ملتفين للنظر معه؟ من دونك كنا نبذل جهداً كبيراً حتى نصير أسرة عادلة، مثل الآخرين، والذين كانوا رغم ذلك يحتقروننا.

فور ولادتك قاموا بلفك في مناشف دافئة، ونقلوك من قسم الولادة إلى مستشفى الأطفال. أول رحلة لك كانت في سيارة الطوارئ، في حوالي الثانية صباحاً جاء الأب إلى المنزل وهمس: إنه ولد، كل شيء على ما يرام. بعدها تحدثنا في السرير عن أسماء محتملة لك. قبل امتحاني للقبول في المدرسة الإعدادية بشهر، قمنا بإحضارك من المستشفى. الحذر مع أخيك الصغير، قلت في نفسي، الحذر، ألا تتركه يقع، حتى وأنت تحضنه في السرير، لا تضغط عليه فجأة. انظروا كيف يبحث عن ثدي الأم، صاح الأب في سعادة غامرة، إنها غريزة طبيعية. وصدر الأم الضخم كان لا يمكن إغفاله تحت الثياب. وددت لو كانت الأرض ابتلعتي، لكن هذا أكثر شيء طبيعي في الحياة، سمعت أبي يقول، لا تكن خجولاً بهذا الشكل.

هل تذكر ذلك الخطاب يا أبي، وفيه كما كنت أعتقد في ذلك الحين، قد قلت الحقيقة دون رتوش، كان تأثير هذا الخطاب صفرًا. لم يكن النقر يعبر إلى الخارج، وإنما كان فقط صوته في داخلي، لا شيء، ربما نغمة خفيفة، جدران سميكة عازلة للصوت ابتلعت صرختي هذه، واستمر الحال كما كان من قبل. من طاولة المكتب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمام. نعم، لقد انتهى أخي من دراسته الجامعية، وكانت درجاته جيدة. الآن، اعتقدت أنا، الآن، أنه يستطيع أن ينطلق. من طاولة المكتب

إلى طاولة الطعام، ومن طاولة الطعام إلى غرفة الحمام، ولكنني كنت أتصور دائمًا شيئاً مختلفاً تماماً له؛ حياة عادية، حياة عادية للغاية. هل تفهموني، مع زوجة وأطفال، ومسكن خاص به، كل شيء كان يبدو لنا أمراً طبيعياً، كان بالنسبة له حالة خاصة للغاية. واستمر الحال هكذا، سنة شجرية بعد سنة شجرية محسوبة رياضياً بدقة.

كل شيء تم ابتلاعه من خلال الجدران العازلة للصوت، والتي بناها الأب والأم والأسرة. يا إلهي، لقد فعلتـما كل ما في وسعـكـما؛ بلا كـلـلـ كان عمل الأم الجدير بالإعـجابـ، وأنـتـ أيضاً يا أبي العـزيـزـ، كان الاعـتمـادـ علىـكـ طـوالـ الـوقـتـ. كلـ منـكـماـ أعـطـاهـ ما يـسـتـطـيعـ إـعـطـاءـهـ، ولكن دـوـيـ النـقـراتـ لمـ يـخـرـجـ مـنـذـ ذـلـكـ الـوقـتـ منـ رـأـسيـ، أـسـمـعـهـ تـارـةـ بـصـوـتـ عـالـ، وـتـارـةـ بـصـوـتـ خـفـيـضـ، وـتـارـةـ أـخـرـىـ يـختـفـيـ تمامـاـ. وـالـآنـ أـخـشـىـ أنـ يـزـدـادـ مـرـةـ أـخـرـىـ. ربماـ فيـ المـرـةـ الـقـادـمـةـ لـنـ أـسـتـطـعـ تـحـمـلـ دـوـيـ النـقـراتـ، المـرـةـ الـقـادـمـةـ سـيـكـونـ دـوـيـ النـقـراتـ أـعـلـىـ، دـوـيـهاـ سـيـصـيرـ بلاـ رـحـمـةـ وـخـلـاـيـاـ جـسـديـ لـمـ تـعـدـ مـرـنـةـ، مـعـ تـقـدـمـيـ فـيـ الـعـمـرـ أـصـبـحـ فـرـوـ طـبـلـتـيـ رـقـيقـاـ بـعـضـ الشـيـءـ. أـخـيـ لـيـسـ شـخـصـيـةـ فـيـ روـاـيـةـ، إـنـماـ هـوـ وـاقـعـ لـمـ يـتـخـيلـ أـحـدـ مـنـاـ مـصـيـرـهـ، فـهـوـ يـعـيـشـ حـيـاتـهـ دونـ كـلـ وـبـطـرـيـقـتـهـ المـتـواـضـعـةـ وـعـلـىـ نـحـوـ مـعـيـنـ فـيـ صـمـتـ رـاضـيـاـ وـقـانـعـاـ. هـلـ هـوـ سـعـيـدـ؟ـ بـالـكـادـ يـكـونـ هـذـاـ مـمـكـنـاـ، أـعـتـقـدـ أـنـاـ مـنـ وـجـهـةـ نـظـريـ..ـ لـوـ كـانـتـ عـلـىـ الأـقـلـ لـدـيـهـ زـوـجـةـ، نـعـمـ يـاـ أـبـيـ الـعـزيـزـ، لـوـ كـانـتـ لـدـيـهـ زـوـجـةـ؟ـ

أشـرـتـ إـلـيـهـ مـرـةـ بـمـشـاهـدـةـ فـيـلـمـ «ـحـبـ عـاجـزـ»ـ، وـكـانـ ردـ فـعلـهـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ وـكـأنـيـ قـمـتـ بـتـقـدـيمـ تـقـرـيرـ وـثـائـقـيـ لـهـ عـنـ غـرـيـانـ

الجبال. لا أحد يعرض شيئاً مثل هذا، قالت الأم، إن فيه إحراجاً. الحب يجب أن يكون جميلاً، فالجنس المجرد عبارة عن جمباز بذيء. ولدى المعوقين يكون تأثير الجنس المحس أكثر مرارة، الشخص المعاق في بدلته الأنثية وفي دار نظيفة وجميلة يكون شخصاً مختلفاً، مقارنة بهذا البؤس المعروض على الشاشة لم يحدث شيء، واستمر الحال كما هو عليه، من طاولة المكتب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمام. زال الخطر، ومرة أخرى ابتلعت الجدران العازلة للصوت كل شيء، كأنها قطعة إسفنج بقوه امتصاص أبدية، لكن ذات يوم ستمتلئ قطعة الإسفنج بالماء عن آخرها، ولن يمكنها تحمل المزيد من الماء، وسيقطر الماء من الجدران، بلا انقطاع سوف يسيل ويسيل، وفجأة لن يكون إلا هذا التدفق، هذا السيل، هذا السقوط لكتل المياه.

لا يمكن إلقاء اللوم على أحد، لقد حدث ما حدث بكل وضوح، وتطور الحال وكأنه تفاعل متسلسل، وضد ذلك أنا أريد أن ألقى القنبلة، أريد أن يأتلف الحال بين ما هو واقع وما يمكن أن يكون. منذ فترة ليست بعيدة، قمت بتكسير البندق مع حفيتك، يا أبي العزيز، هل تتذكر؟ وقمت بأداء تمارين الضغط الرياضية حوالي 24 أو 25 مرة. ضعفك المتزايد كان عبيداً لا يمكن تحمله، وإهانة من العمر، رغم اتخاذك كل التدابير الوقائية، أيضاً بالنسبة لي كانت بداية تدهورك الصحي عبيداً ثقيلاً.

ولم تتفق مع تصوراتي التي كونتها عنك! الذكاء، والقوة الجسمانية، صفات مميزة للرجال في عائلتنا، أيضاً تحدي الأيام والتغلب على الصعوبات في الحياة، والدفاع عن النفس في

حالة الضرورة، كان كل هذا هو شعارنا، لكن التقدم في العمر مخادع. فعلى أقساط تبدأ الحياة في الفرار، خط التقارب إلى الصفر، وأخيرا تخفي الطاقة المطلوبة للحفاظ على النظافة اليومية، والروتين اليومي في المنزل. وطراً التغير، فبدأ الإهمال في المنزل، في البداية كان على نحو غير واضح، صار التراب في كل مكان، كان ذلك في الماضي مستحيلا، فالأم كانت مهوسه بالنظافة، وقاومت يائسة ضد هذا التدهور، ولكن بعد فترة وجيزة كانت هناك كرات من التراب وشعر السجاد خلف قطع الأثاث.

زاد المجهود للغاية، ولكن الطاقة لم تعد تسمح. ماكينة حصاد، هناك، هل تستطيع أن تسمعني في وسط هذه الضجة؟ من الممكن أن نبقى واقفين كما الأطفال، كما المتقاعدين أمام موقع بناء، نشاهد كيف تغير الماكينة اتجاهها، ربما يحدث أمر غير عادي، كأن تسقط المركبة مثلاً أو تبقى متعلقة في حفرة. ها هي كشافات الضوء موجهة إلينا، عليك بغلق عينيك وإلا فلن ترى بعدها شيئاً، فالعين تحتاج وقتاً كي تتأقلم ثانية، نأمل ألا يكون السائق قد لاحظنا. كلا، إن ماكينة الحصاد تلف، أغلق فمك وتوقف لحظة عن التنفس، وإلا فسحابة الغبار سوف تجفف حلقك، أنا لا أريد أن تصاب بنوبة سعال وأنت فوق ظهرى، يا لها من سرعة تلتهم فيها الماكينات حقول القمح!

هل مازلت تتذكر يا أبي، كيف كنت تدافعون عن الوضع القائم بشكل عنيد؟ هل تتذكر؟ كان الشعار هو فقط لا تغيير، كل شيء نتركه كما كان؛ كان أهم أمر هو رعاية الابن العاجز، حتى التهاب مفاصل الوركين، لم يمنع الأم من الاستمرار في العمل، والعملية

الجراحية شيء غير وارد، بالنسبة لي هذا أمر خطير للغاية، أنا لا أريد تخديراً كاملاً في مثل عمري هذا، بسبب ذلك تصبح كثير النساء وربما تصير غبياً. أنا لا أريد أن يتم حقني في الظهر، فربما أصاب بعدها بالشلل، فلست في حاجة إلى ذلك، لكنها كانت تتآوه عند المشي، فقد كان وزنها زائداً.

احتدرس، الماكينات، لقد صارت الآن اثنين، ربما تتوجهان إلينا، ربما تريدان دهسنا، كالمتهورين على الطريق العام، يريدون سحقنا، طحنتنا تحت العجلات العملاقة، التي يبلغ ارتفاعها قامة رجل، ربما يريدون تقطيعنا بسكاكين قواطعهم ذهاباً وإياباً. كلا، إنهم ينبعطرون ثانية، لقد كانت مصادفة، إنهم لا يتركون أحداً أبداً يشتبه عن عملهم.

هل رأيت يا أبي سائقاً؟ يبدو أن إنساناً آلياً هو الذي يقود هذه الماكينات؟ ماكينات حصاد تُدار بواسطة كائنات غير أرضية؟ الآن عادت للاختفاء مرة ثانية في الظلام، إن ضجيجهما عال كالطائرات النفاثة، ودويّه في الأذن لا ينتهي. تعال، نحن لا نريد مقابلتها في لفتها القادمة.

التجديد في البيت إذا كان غير وارد، كانت تكلفته مرتفعة الثمن بالنسبة لك، والأم تفضل شقة جميلة بأربع غرف في طابق واحد وفي حالة ممتازة. أيضاً لم يكن وارداً تعين عاملة نظافة في المنزل، هل تعتقد أنني أريد أنأشعر بالخجل، هل تعتقد أن أترك أحدها يدخل بيتنا غير المرتب؟ ماذا يمكن أن يقول الناس عنِّي؟ حلقة مفرغة، تدهور دائم إلى الأسوأ، بعد ذلك تم إغلاق الغرف في الطابق العلوي، من الناحية العملية من الأفضل للأم أن تكون كل الغرف في طابق واحد.

الأم تمام بجانب المدخل، تماماً بجانب الباب، هنا أشعر بأني أكثر أماناً، فأنا بجانب ابني إذا احتاجني، أما هو، أخي، فقد تحمل ذلك، لم يجد ولو مرة واحدة أنه غير سعيد، كان يتكلم مع الأم، ويتقاشر معك يا أبي، يتدخل لتسوية الخلافات بينكم، ويمنع وقوع الأسوأ. بعد ذلك بدأ مفصل ورك الأم في التوقف عن العمل، وأصبح المشي يسبب لها صعوبة كل يوم. رغم ذلك دارت عجلة الحياة اليومية ولم تتوقف. أما بقية العمل في البيت فتم تجاهله تدريجياً، من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، من طاولة المكتب إلى غرفة الحمام، ومنها إلى طاولة الطعام، لا شيء يمكنه تعطيل هذه الطقوس. كنتم كالكواكب في مساراتها، لكن لا يمكن استمرار الحال على هذا المنوال، عليكم أخيراً الاعتراف بذلك. لا إقناع، لا غضب، لا رجاء. لا يمكن فعل شيء، والكواكب تدور دون خطأ في مساراتها، وفق قوانين رياضية.

الشجارات المستمرة أبقيت أحجز لكم العضوية حية، ومنحت الأكسجين لمسارات الدم العائلية. من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، لا يمكن استمرار الوضع بهذا الشكل، يجب أن تفعلوا شيئاً

ماذا سيقول الناس؟ أنا لا أبالغ في قول الناس، صاحت الأم، أنت الذي كنت دائمًا تهتم بما يقوله الناس، أنا أريد بالفعل، لكن أباً! أنا أريد بالفعل، لكن أمك! إنه مأزق كبير وفظيع. كما لو كان عليك أن تثبت شيئاً للحياة. في وقع تأثيرها، بمنطق عائلي خاص، في علاقة المجنانيين الثلاثة. كما لو كان يجب عليكم إثبات أنكم الأقوى في مواجهة القدر، في مواجهة الموت. ودارت كالكواكب في مساراتها دون هوادة، دون رحمة.

وأنا أيضاً سوف أظل جالساً في الترام، حاملاً جرة الرماد، من تيفين برونن إلى بارادا بلاتس، ومن بارادا بلاتس إلى التشيتن، ومن التشيتن إلى بارادا بلاتس، ومن بارادا بلاتس إلى تيفين برونن، وجرة الرماد فوق ركتي. سوف أواجهكم وسوف أتحداكم بعمرِي ذي الخمسين عاماً، فأنا أستطيع إنجاز ذلك في نهاية المطاف.

سوف أكون نداً لكم، وسوف أتحداكم، ولن أتمرد بعد اليوم، وسوف أتأقلم مع منطق العائلة، وأنضم إلى نظامكم، أم أقوم بإلقاء القنبلة؟ وددت لو دمرت نظام الأسرة كله، وقمت بإنشاء صفحة بيضاء، لقد فعلتم كل شيء للاabin العاجز، ماذا كان يمكن أن يحدث من دونه؟ هل كانت الأشجار ستتمو إلى السماء؟ أخي العزيز: لقد كنت أنت هنا، وفي هذه الأثناء، تعلمت أنا كيف أكتم نفسي جيداً، ولكنني لم أستطع إنكار وجودك وشكلك المستفز وأنت رضيع. لماذا عيونه زرقاء وعيوني أنا خضراء؟ هل كل الأطفال في هذا العمر لديهم حول؟ أم أن هذا سيبقى؟ تراجع شكل رأسه، الذي يشبه المنطاد، بعض الشيء، لكن لم يتراجع حول، لا نريد أن يكون أحد أفراد أسرتنا أحول العينين، حتى لو كانت الأم ترى أن النساء حول جذابات بالنسبة للرجال.

وهذا فقط حول عيني رضيع، عندما بدأت أنا بالمدرسة في تعلم اللغة اللاتينية، كنت أنت تتعلم الابتسام، اثنا عشر عاماً، تقريباً ثلاثة عشر، فرق العمر بيننا جالساً في زاوية على الأريكة، تم وضعك بلطف، وتم تصويرك من قبل مصور فوتografي. كانت الصورة التي يظهر فيها حول عينيك، هي بالذات أجمل صورة، قال الأب، فأنت تبدو فيها مغلوباً على

أمريك. يمكن لنا رؤية ذلك بوضوح، كيف أنه في احتياج لنا، في السراء والضراء، رغم ذلك فإن الأم كبرت صوراً أخرى. وأنا بدأت اعتاد على أن لي أخاً أحول. عندما تضع اليوم النظارة الشمسية فوق عينيك، لأن ضوء النهار يسبب لها آلاماً، وأن ذلك ينزع منك الإحساس الضروري بالأمان، وعندما تتحرك فجأة أثناء الحديث بكرسيك، عندئذ لا يمكنك تفهّم موقفك دائماً، غالباً ما تسبب في إثارتي؛ أنت تُظهر شيئاً، أريد أنا خلف توتر أعصابي وسخرتي إخفاءه؛ ألا وهو الخوف، الخوف المجهول المنتشر في كل مكان.

هروبك المحدد إلى غرفتك المجاورة، ودفعك المتشنج لعجلات كرسيك المتحرك، ورجوعك إلى طاولة مكتبك، كل هذا من شأنه أن يغضبني حتى وقت قريب، وأثناء ذلك كانت مساحة الحياة بالنسبة لك تضيق من يوم لآخر، قريباً كان طريقك الوحيد هو المسافة بين غرفة النوم وغرفة الحمام، كان كل تغيير يغرس فيك الخوف، وفجأة جاء سائق تاكسي جديد، يقود بك السيارة، وأنت تخشى الأسوأ في الطريق إلى المدرسة، أن تصاب بالإغماء مثلاً، قلت لي ذلك ذات مرة أو أن فقد الوعي.

لقد كنت تبذل قصارى جهدك دائماً، لئلا يحدث ذلك. الأسرة كانت تصور لك العالم الخارجي وكأنه منطقة ملغومة، فالخطر يتربص خلف كل جديد، الأمان تجده فقط في المنزل الموثوق به، أما في الخارج فيجب أن تتوقع الأسوأ دائماً.

هل تتذكر تلك الرسالة يا أبي؟ قبل أن نأتي، نحن الأطفال إلى الدنيا، كنتما، أنت وأمي، زوجين جذابين، موضع حسد الجميع، في الصور القديمة ذات الحواف المسننة، أشياء البيات

في الخيام، وعلى قمة الجبل، وزحافات التزحلق على الجليد فوق الأكتاف، مباللين بالعرق، وذوي جمال، مفعمين بالحيوية والنشاط، مقدامين. زوجان جديدان، نمط حياة جديد، والمستقبل كان ملكاً للكما، كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الانتهاء، ثم جاء الابن الأول؛ بداية جديدة لأسرة مرة أخرى. ربة المنزل السعيدة في المنزل تفني، مهندس الإنتاج الطموح فوق السقالة، ومع العمال في المكتب أمام طاولة الرسم، لا شيء يمكنه تدمير الأسرة السعيدة، ثم في عمر السابعة والثلاثين، تم بناء منزل الأسرة، وقامت بزراعة أشجار وشجيرات في صفوف، وعمل حديقة جميلة، تم شراء أرنب، وعمل حظيرة من الخشب.

كم كنت سعيداً ذات يوم عندما وجدت أنثى كلب من نوع البوكسير تقف أمامي في الممر، كانت تريد دائماً أن تهرب، ومن خلال ضرباتك لها بالسلسلة المصنوعة من الجلد، كنت تمنعها من ذلك. لقد قرأت في كتاب قديم عن الكلاب، أنه يجب أن تكون صارماً مع الحيوانات، وإلا فستفعل بك ما يروق لها، بعد وقت قليل أصبح من الصعوبة السيطرة على أنثى الكلب، فعندما يكون الباب مفتوحاً قليلاً، كانت تضغط نفسها للخروج منه وتهرب، وتبقى عند أناس غرباء، وكان يتعتم إعادتها، وكانت تئن عندما تركها؛ حينها قلت إن هذه ليست كلبة، وتم إبعادها، لقد كنت تتسبب عرقاً عندما كنت تعمل في الحديقة في عطلات نهاية الأسبوع، وعندما كان يتحتم عليك قطع الشجيرات العالية بمقص الحديقة.

كنت تجعل من شجيرات عيد الميلاد الصغيرة شجرات كبيرة، ومن شتلات القيقب شجرة كبيرة، لقد كنت تقضم العشب المرتفع

حتى الركبة بمقص الحشائش اليدوي، وعندما كان محور المقص يصيبه العطل، كنت تغضب وتثور، وقمت بشراء آلة لقص الحشائش ذات محرك، وكان قرصها الدوار ذو السكين يحتك بالحجارة محدثا صريرا عاليا، ومرة أخرى تغضب وتثور.

شعراتك القليلة كانت تتلتصق برأسك مثل رضيع، كنت تعمل مثل مجنون، وتشرب ليترات من القهوة الباردة، وتحشو في جوفك شطائر الخبز المحشوة وتعود إلى العمل وأنت تمضغ الطعام، كنت تكاد تتفجر من الحيوية. نعم يا أبي العزيز، أنا لم أتحمل شيء يخوتك، سقوطك المفاجئ، ضعفك، وموتك المقترب. لن أنزل أبدا من الترام، سوف أستمر مسافرا فيه، في هذه العربية النظيفة، ذات الأرضية القوية التي تتحمل مئات الآلاف من الأقدام، هذه الأرضية التي يتم تنظيفها كل يوم بالماء الكيميائية الحادة، وهذه الجدران المنظفة برغوة الصابون، هذه الكراسي والمقاعد التي تُظهر من الجسيمات الترابية القدرة، حتى مسام الأغطية المصنوعة من النظبياون وتعقم. أريد أن أدور بال ترام في الشوارع، نظيفا، معقما، محفوظا أمام الحياة، وأمام الزمن، ويضيء الترام في الليل ويسافر الجنون معه، سيجد له مسكننا، كالجني في المصباح، سوف أنزع مقابض أبواب الترام الآوتوماتيكية، وكل شيء سيكون مغلقا بإحكام.

هنا يسافر الجنون الصغير، في هذه الزنزانة الانفرادية، ستصبح وسيلة جذب سياحية مثل ترام الحفلات. ممنوعا من الخوف ومحبوسا في ترام زيوريغ، التابع لهيئة موصلات المدينة، سأضفط أنفي على زجاج النافذة البارد، متوجه الوجه، ومتنفسا على الزجاج، وسأكتب فوقه بإصبعي، وأعطيكم علامات ورسائل

مشفرة، ناظرا إلى الخارج باستمرار، على المبنى المهيب لجريدة نويا زبور خر تسياتونج وعلى مبنى التخطيط العمراني في بيلفي، وعلى دار الأوبرا ومرحوم زيكسلوين، وما تزال جرة الرماد فوق ركبتيّ. نعم يا أبي، سوف أنثر رمادك، وسوف تكون خدمة الحب الأخيرة، عفوا، سوف يطير الرماد وستهب ريح خفيفة، من الأفضل لو كانت رحاحاً شمالية، بعيداً عنّي، فالمحدّر يتوجه إلى الجنوب، وإنّا سأجد غبار الرماد على شفتيّ، وفي أنفي، وفي جهازي التنفسـيـ، وفي فميـ، وسوف تصطـلـ أـسـنـانـيـ عندما أـخـفـيـ دـمـوعـيـ، وعـنـدـمـاـ تسـكـنـ الـرـيـحـ، يـتـحـتمـ عـلـيـ الرـجـوعـ بـالـجـرـةـ فيـ يـدـيـ إـلـىـ الـورـاءـ وـبـقـوـةـ أـقـوـمـ بـتـقـرـيفـهاـ فـيـ الـهـوـاءـ، حـتـىـ لـاـ يـسـقـطـ الرـمـادـ مـبـاـشـرـةـ أـمـامـيـ، وـعـلـىـ قـدـمـيـ وـبـقـىـ عـالـقـاـ بـشـجـيرـاتـ الـخـمـانـ، وـالـتـيـ تـتـشـبـثـ بـجـذـورـهـاـ فـيـ التـرـبةـ الـقـلـيلـةـ عـلـىـ المـنـحدـرـ. سـيـبـقـىـ الرـمـادـ عـالـقـاـ، كـمـاـ فـيـ مـوـاقـفـ السـيـارـاتـ، عـنـدـمـاـ يـقـومـ قـائـدـوـ السـيـارـاتـ بـتـقـرـيفـ منـافـضـ رـمـادـ السـجـائرـ، وـأـيـضاـ عـلـىـ الـعـشـبـ بـيـنـ الـمـسـطـيـلـاتـ الـمـطـلـيـةـ بـالـلـوـنـ الـأـبـيـضـ. رـبـماـ يـتـوقـفـ الرـمـادـ لـلـحـظـةـ فـيـ الـهـوـاءـ، وـيـحـجـبـ الشـمـسـ مـثـلـ سـرـبـ مـنـ الجـرـادـ، وـمـاـذـاـ سـوـفـ أـفـعـلـ بـالـجـرـةـ الـفـارـغـةـ؟ـ هـلـ يـنـبـغـيـ أـنـ أـرـمـيـهـاـ خـلـفـ الرـمـادـ؟ـ أـمـ أـنـزـلـ بـهـاـ مـنـ فـوـقـ سـفـحـ الـجـبـلـ وـأـضـعـهـاـ فـيـ الـبـيـتـ؟ـ فـيـ مـكـانـ مـاـ فـيـ الـقـبـوـ بـجـانـبـ أـوـانـيـ الزـهـورـ؟ـ أـمـ يـنـبـغـيـ أـنـ أـلـقـيـهـاـ فـيـ الـقـمـامـةـ؟ـ وـالـآنـ تـتـشـبـثـ بـيـ مـرـةـ ثـانـيـةـ يـاـ أـبـيـ الـعـزـيزـ، أـنـاـ لـاـ أـتـحـمـلـ ذـلـكـ، فـالـجـوـ قـائـظـ إـلـىـ حـدـ كـافـ، أـنـاـ مـشـتـاقـ حـقـيقـةـ إـلـىـ الـمـطـرـ.

هل تتذكر يا أبي؟

وجاءت النهاية على نحو مفاجئ؛ الأم لم يعد في استطاعتها أن تقف على قدميها، الساقان صارت متورمتين، كل لمسة كانت

تؤلمهما، وأصبح المشي مستحيلاً. وتوقفت العجلة فجأة عن الدوران في عصر يوم صيفي عادي، قرب المساء تقريباً، بدأت الشمس في الانحدار من خلال النوافذ الزجاجية غير النظيفة؛ لم تعد الأم قادرة على المشي إطلاقاً، هل سقط النجم من مساره؟ من طاولة المكتب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمام، هذا الطقس تلاشى بضريره واحدة. وكل التبريرات مثل: سوف يمرّ الأمر بشكل ما، إن الأمر ليس بهذا السوء، ممّ تعانون في الحقيقة؟ توقفت فجأة. قال الطبيب، لا يمكن استمرار الوضع بهذا الشكل، الأوردة، العضلات، المفاصل، كلها أصبحت متورمة، الأم، قلب الأسرة، توقفت عن العمل. وأصبحت مهددة بالذهب إلى بيت المسنين، ودار الرعاية، حيث الوجبات المشابهة والأفواه المفتوحة والأيدي المرتعشة والحساء المسكوب وسيلان اللعاب.

وأخي أصبح منفصلاً من يوم لآخر عن الأم، وأيضاً هو مهدد بالذهب إلى بيت المسنين ودار الرعاية، رجل سليم في الأربعين من عمره، ذات يوم سيموت دون أن يعرف معنى الحياة الحقيقية. سوف يموت قبل أن يحضن امرأة، من هو المسؤول عن ذلك؟ في حين إني كنت أتمنى له حياة عادية. إن إعاقته كبيرة، ولا يمكنه المشي، ويعتمد اعتماداً كلياً على الكرسي المتحرك، ويحتاج مساعدة خارجية لبعض الأعمال المنزلية، لكنه ذكي، وكان من الممكن أن يكون أكثر استقلالاً.. من الممكن أن يحصل على زوجة، ليست لديها مشكلات مع إعاقته.. وتقدر مثل هذا الرجل بالذات، الذي هو محبوب ومتميز، ومن الممكن أن يسكننا في مسكن معدّ للمعاقين، ويكون لديهما أطفال، ربما

ابن وابنة، وأن يعمل في وظيفة مناسبة، في مكتبة كبيرة مثلاً أو ربما محرراً، وأطفاله سوف يحبونه، ويحترمونه، لأن لديه أسلوباً مسالماً ومرحاً. وذات يوم أحد في الصيف سيذهبون إلى حديقة مطعم لتناول الطعام، ومفرش مائدة الطعام الأبيض سوف يبهر عيونهم، وسوف يغمزون بها، ويطلبون مظلة واقية من الشمس.

تقريباً أسرة متوسطة المستوى عادية، الأب في الواقع مقعد لكنه ذكي للغاية وأنيق، واستطاع أن ينجز شيئاً في حياته، فهو لاء الناس إما أن يكونوا ساخطين أو قادرين على إنجاز أهداف عظيمة، وكان سيساعد أطفاله في الواجبات المدرسية، ويكون مستمعاً عطوفاً؛ يفرح لنجاحاتهم ويبدي ابتسامة خفيفة عند فشلهم، وكان بكل تأكيد سيعيش حياته، وربما توقف أحياناً عند طاولة مكتبه قليلاً، ينظر من النافذة، حين ينزل ابنه مسرعاً على السلالم حاملاً حقيبته الرياضية، ربما يظل متأنلاً للحظات، وربما حزيناً. سيكون محترماً، وعضوًا نافعاً في المجتمع، وربما حتى كان عضواً في رعاية المدرسة أو مجلس البلدية.

لكنه الآن أصبح مهدداً بدخول بيت الرعاية أو بيت المسنين. ربما كانت هذه الهموم لا أساس لها من الصحة، وربما سارت الأمور كما كانت من قبل، واستمرت دائماً؛ من الطاولة إلى السرير ومن السرير إلى الطاولة. وربما ترك نفسه ليعيش في دار الرعاية بطريقة مشابهة، نادراً ما تمرد الأخ ضد مصيره، دائماً على ما أعتقد كان يستطيع التأقلم، ربما مرة أو مرتين، صرخ أو انفجر وقام بقذف قلم، لكن غير ذلك لو كنت مكانه لانقضضت عليكم، ومشيت على أربع، وقمت ببعضكم مثل كلب مسعور، وكنت ما تركتكم، كنت جعلتكم مسؤولين عن كل شيء،

و كنت مزقت سريري بسکین، و انتزعت كل الصور من الجدران، و قمت بإزالة كل الرفوف، وألقيت الزجاجات على النوافذ، لكن قد صرخت و ناديتكم جمیعا في وسط اللیل بصوت مثل حیوان جریح، لكنت سرقت النوم من أجفانکم، و لكنت ظللت أصرخ حتى يوم القيمة.

و كنت قد أضرمت النار في غرفتي، وأصبحت مشعلا للحرائق، مثلك يا أبي اليوم، لكنت صرت الشخص الذي كنت تخوف في الماضي أن أكون، عندما كنت ألعب بأعواد الثقب وأنا طفل. هل تستطيع أن تكون أكثر هدوءا يا أبي؟ لماذا تتمايل دائما بوسطك، ألا تلحظ أنك تجعلني أفقد توازني وتزعج إيقاع خطواتي؟ سنحتاج قليلا من الوقت حتى نصل إلى الكوخ، وهناك سوف تجد راحتک، سوف تجلس في كرسيك أمام النافذة، حتى يمكنك رؤية مناظر الطبيعة في الصباح الباكر، لن تشبع من النظر إلى التلال المليئة بالأشجار، و قمم الجبال، والوديان المنبسطة، سوف ترك عيونك تتتجول في الأفق، حتى معالم جبال الألب التي يلفها الضباب.

هل ما زلت تذكر كيف كنا نعمل سوية لبناء هذا الكوخ؟ أنت لم تكن تعتقد أنني قادر على عمل مثل هذا؟ أنا ما زالت أتذكر ذلك جيدا، كيف كنت تمصح عرق وجهك بظهر يديك، وكيف كنت تجلس للحظة لتلتقط أنفاسك. كنا نعمل بإصرار حتى بعد حلول الظلام، بمرور الوقت أصبح العمل الصعب سهلا، وذلك لأننا أصبحنا فريقا منسجما، مرات قليلة، قضينا الليل هناك في العالي، في الهواء الطلق، و عند الفجر كنا نقوم بعمل القهوة على النار، ثم نعود بعدها إلى العمل. أعتقد عندما كنت آخر

مرة هناك مع مارا، تركنا علبة نسكافيه مليئة، والتي يمكننا بالتأكيد استخدامها، كذلك علبة من لبن القهوة المكثف، نعم يا أبي، سترى أنه في إمكاننا إنجاز ذلك.

سوف نسكن هناك سوياً، مازال لدى الكثير من الأسئلة،
ماذا كنتما تفعلان حقيقة في الماضي أنت وصديقك، الطبيب؟
لماذا كانت تتكاثر الأسماك في أحواض السمك والبرمائيات في
الأحواض الزجاجية؟ هل قمتما بإجراء التجارب في القبو الذي
أعيد بناؤه؟ هل قمتما بوقف نمو الشراغيف من خلال معالجات
مناسبة؟ هل قمتما في الورشة الصغيرة التي كانت تقع مباشرة
بعجانب قبو النبيذ وبجانب غرفة الفسيل والتي كانت بها عصارة
من النحاس في ذلك الوقت، هل قمتما بلعب دور فرانكشتاين
قليلًا؟ معاً ماذا كنتما في الواقع تفعلان بعد الحفل المسائي، يوم
الأحد، عندما خرج الآخرون للتترزه، أو كانوا في الكنيسة أو في
ملعب الرياضة؟

كان وجهك شاحباً، وكنت تشبه حيوان السمندر الذي لا يرى
ضوء النهار أبداً، هل كان ذلك مجرد هواية؟ أم كنتما بالفعل
تقومان بالبحث؟ في ذات الليلة، عندما كان الابن الأكبر يحمل
أباه فوق التل في زيورخر أوبيرلاند، كان الابن الأصغر والمعاق
جسدياً يريد الخلود إلى النوم، عندما شعر بحاجته للتبول وظن
أن هذا الإلحاح سوف يوقظه أثناء الليل وقد يصبح مزعجاً. يبدو
أنه أكل الكثير من سلطة الذرة وشرب ماء معدنياً بالإضافة إلى
القهوة، إن كل هذا ينشط المثانة، كانت الأم تقول له ذلك دائمًا،
لقد قلت لك دائمًا لا تشرب الكثير قبل الذهاب إلى السرير،
وعادة هو يحافظ على ذلك، لكن اليوم الجو كان حاراً على غير

المألف، وشفتاه كانتا جافتين، نادى: أمي، لأنه يحتاج مساعدتها كي ينهض، فهو لا يستطيع الذهاب لدورة المياه بمفرده. يا أمي! ولكن يبدو أن الأم قد نامت، لأول مرة تصبح الأم مرهقة بعض الشيء منذ عيد ميلادها الثالث والثمانين.

وكرر النداء: يا أمي، هل يمكنك من فضلك مساعدتي! مرة أخرى لا شيء. إنه لا يريد إيقاظها لسبب غير ضروري، وفكرة في نفسه، ربما يمكنه النوم بمثابة ممثأة، على فقط ألا أحلى ذلك بإصرار، فالأمر ليس عاجلا، فربما يتراجع الإلحاح ثانية، لكنه أحس مع ذلك بالقلق بعض الشيء. في العادة هي تستيقظ عندما يناديها في المرة الثانية، فإلى حد ما نومها خفيف، واعتادت على إيقاظه لها، لكن مثانته لم تهدأ.

يا أمي، صاح الآن بصوت عالٍ واضح، أمي! وصرخ في النهاية، مرة أخرى لا شيء، توقيفي يا أمي عن هذا هل تمزحين؟ أمي، هل أنت في حالة سيئة؟ طوال حياته كان يخشى هذه اللحظة، وكثيراً ما حاول إزاحتها جانباً. لا تفكر في ذلك، فقط لا تفكر في ذلك، وإن ر بما حدث، لكنه كان يعيش كما فوق بركان، يوماً ما سوف تبدأ الأرض في الاهتزاز، وسوف تتربع الجدران، وسوف تحدث شروخ، ويتتساقط الطلاء، وتسقط الصور من الجدران، ويقع الأثاث، وتنهار الأسوار.

الآن حان الوقت، وكان مختلفاً للغاية عما كان متصوراً. بكل هدوء، كان فقط يسمع نبضاته، يا أمي! صرخ مرة أخرى، لا شيء، ساد الصمت، مد يده نحو الهاتف اللاسلكي فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، كان مرتكباً وبحركة خرقاء انزلق الهاتف من بين يديه وسقط فوق الأرض الخشبية، رفع نفسه

الأب

عالياً بعض الشيء وتشبث بيديه بحافة الفراش، وشد جسمه إلى طرف السرير وتحسس مكان الهاتف، الذي أصبح لا ي العمل، فالجهاز الحساس ومن خلال الضربة القوية على الأرض، صار معطلاً، لم يعد في إمكانه طلب نجدة، يا أمي! صرخ مرة أخرى، ربما كان كل شيء فقط مجرد كابوس، لا شيء.

لم يجرؤ حتى على إشعال الضوء، ففي الظلام كان يشعر بالأمان، أما في الضوء الساطع فربما يكتشف على نحو غير متوقع ما يمكن أن يجعله يشعر بالرعب والفزع، فليمكث في الظلام، وكأن شيئاً لم يكن، فليبق الأمر سراً، ولا تُكسر التعويذة. مرة أخرى تناول الهاتف اللاسلكي، لكن الجهاز ظل صامتاً، كان يسمع نقرات المنبه الكهربائي، وصوت طنان الثلاجة قادماً من المطبخ، وقطعة خشب سقف الغرفة، كان الوقت ما يزال العاشرة والربع ليلاً، وقام بالنداء مرة أخرى، وبتردد: يا أمي! بعد ذلك أشعل الضوء في غرفته، ورأى أن شيئاً لم يتغير، ونظر بطرف عينه إلى الباب الموارب في الناحية الأخرى، هناك، حيث مرقد الأم، لكنه سرعان ما أشاح وجهه بعيداً في الحال. عليه الآن أن ينهض، وأن يفعل شيئاً، مرة أخرى رفع نفسه عالياً، وحاول إنزال ساقيه من فوق حافة السرير إلى أسفل، ساقيه المتقلصتين بفعل توتر العضلات.

تشابكت يداه مع غطاء السرير، وجذبه فوق رأسه عن طريق الخطأ، وعندما لم يستطع فوراً إزاحتة، تملكه الرعب للحظة. تمكّن أخيراً من أن يخلص نفسه، وأن يضع قدميه على الأرض، وأمسك عموداً تم تركيبه خصوصاً له، محاولاً رفع جسمه عالياً، كي يصبح في وضع الجلوس، لم يكن أبداً في حياته مجبراً

على أن ينهض بمفرده، كان هناك دائمًا من يقوم بمساعدته، لم يحس أبداً بالتعاسة أو أنه معاقد، طالما الأم هنا، ما لم يمكنه إنجازه، كان هناك من ينجزه له في الحال. لم يشعر بأن شيئاً ينقصه، لكن الآن وفجأة، كان عليه الاعتماد على نفسه، تمكّن من النهوض، وعليه الآن أن يشيّي وسطه إلى الأمام، وأن يمد ذراعيه ليصل إلى كرسيه المتحرك. أخيراً استطاع أن ينجز ذلك، أمسك بمقبض الكرسي، وقام بسحبه نحوه ودفعه إلى وضعه الصحيح، ثم شد نفسه عالياً إلى العمود، وحاول أن يدير نفسه في اتجاه مقعد الكرسي، وببطء يستعد للجلوس، لكنه استطاع فقط أن يصل إلى حافة المقعد، وانزلق الكرسي بعيداً رغم فرامله المشدودة، تمكّن الابن المعاقد بفضل يديه وذراعيه القويتين من أن يمسك العمود بقوة وللحظة، لكنه دار عكس اتجاه عقارب الساعة وسقط على الأرض، حاول لاهثاً، ولباسه مبلل بالعرق تحت إبطيه، أن يعدل نفسه على الكرسي، لكن الأخير كان أيضاً على وشك السقوط، كان عليه أن يعيد المحاولة بطريقة أخرى، عليه أن يجذب نفسه عالياً إلى العمود، وأن يجلس ثانية على السرير، ومنه إلى الكرسي المتحرك.

أخي العزيز.. حتى لا تزعج احتياجاتك أحداً، عمل الآخرون على ألا تكون هذه الطلبات كثيرة، كان عليك أن تنشأ في نظام قوامه الرضا وغير متأثر بالظروف الخارجية، كان غير مسموح أن يشعر بأنه يفتقد شيئاً أو أن يدرك أنه معاقد، فمن الممكن أن يصيّبه رعب لو أنه أدرك فجأة عجزه واحتياجه للمساعدة. لقد فرضوا عليك الجنة، سمنا الأحمرار الذي كان يغطي نصف رأسك بقعة حمراء صغيرة،

الأب

ومع الوقت صار هذا اسم الدلع الذي أطلقناه عليك: حبيبنا ذو البقعة الحمراء الصغيرة.

بمرور الوقت سيختفي هذا العيب الجمالي من تلقاء نفسه، إنها فقط كدمات، قالها طبيب أمراض النساء، كل شيء على ما يرام. في حين إن مجيئك كان بالمؤخرة عند النزول، أي أن وضعك في رحم الأم كان بالملوّب، كان يجب أن يتم هذا في ذلك الحين، وبقيت لفترة طويلة تخضع للعلاج الإشعاعي، حتى يصبح الجزء الظاهر من البقعة تحت الأذن أبيض بعض الشيء، وماذا لو صار ذات يوم مثل الأب أصلع؟ نعم، سيكون حتى ذلك الحين قد عثر على امرأة منذ وقت طويل. كنت وأنت مستلق على بطنه تمد ساقيك، وعندما كنت تتململ، كانت قدماك تتشابكان ببعضهما، كانت مفاصل الركبة لا تكاد تتحرك. يا إلهي! صاح الأب فجأة ذات يوم أحد بعد الظهر، هناك خللٌ ما، وبدأ في تحسس ساقيك. في يوم الإثنين، قمت بتسجيشه لدى الطبيب، هناك شيء غير عادي لديه، فقدماه صلبتان للغاية، ظننت مرة أخرى، أن الكارثة تمت إزاحتها جانباً، وعضلات الساق كانت صلبة ومشدودة.

في ذلك الحين، كان هذا أمراً صغيراً ملفتاً؛ أعدّت الأم الكتالوج الكامل لتفسيره، عكس الأب الذي كان يتكلم بصوت يملؤه الحزن على المصير. ربما هناك شيء فعلاً ليس على ما يرام، قال الأب، يجب علينا فحصه طبياً. كان هناك خوف وفي نفس الوقت هناك أمل، فمن الممكن أن يتلاشى القلق في الهواء، وإنه بقدر كافٍ من عصائر البرتقال والأفومالتين، يمكن أن يجعلك إنساناً سليماً وسعيداً، كان الوالدان أسرى هذه التخوفات.

أما بالنسبة لي فقد ساعد نصححهما على نموي بشكل طبيعي، نتيجة الفحص الطبي لم تكن سيئة بالنسبة للأسرة، ووجب علينا مؤقتاً أن نقبلها، لأول مرة كنت أسمع عن الشلل الدماغي، يا إلهي! إنه معروف، قالت الأم للأب، هل تتذكر في الماضي، في فناء المدرسة، كان هناك الكثير من ذوي الأقدام المرتعشة، كان أحدهم إيطاليا وسيمما، وهو محظى إعجاب الفتيات، بالتمرين على الأرجح يمكن التخلص من هذا العيب. علينا أن ننتظر، قالها الأب وهو مصدوم، علينا أن ننتظر، كنت ترقد فوق البطانية الصوف على الأرض، لا تدري شيئاً، وقبضتك اليسرى الصغيرة تتشبث بملعقة فضية، محدقاً بحولٍ خفيف في سطح الأرضية اللماع وبحالة ابتهاج، مستلقياً على بطنه، وبجهد كبير كنت تمنع رأسك من السقوط على الأرض مرتعشاً من الإجهاد، وبرز ظهرك المقوس عندما تمددت ساقاك في خط مستقيم، وبقيت قدماك معلقتين في الهواء. أنا لم يعد لدي ثقة، قال الأب، كان الأمر ييدو وكان كلاً منا يتهم الآخر بالقصير. كانت الأم تقلل من أهمية الموقف، كلما كان الأب يخشى وقوع الأسوأ، وبخاصة في ذلك الحين كنا جميعاً نحبك.

اللحظات الأولية التي كانت تُظهر احتياجك لمساعدة جعلتنا قادرين على المساعدة وأقواء، صار واقعاً ما كنا جميعاً طوال الوقت نخشاه، لكن على الأقل الآن أصبح كل شيء عادياً، واستطعنا معالجة المشكلة، ولم يعد الأمر يمثل تهديداً مستمراً، كما أن قدر العائلة تحقق على نحو وثيق. كان الأمر بغيضاً بالنسبة لي، وبخاصة أنه لم يعد في الإمكان إخفاؤه. كان مبدئي لا يكون هناك شيء لافت للنظر أمام الآخرين، فقد يمكنهم

الأب

معاييرتي ومضائقاتي؛ إن أخاه ليس طبيعيا، إن أخاه مقعدٌ عاجز. هل تسمع يا أبي نباحا غليظا؟ إنها الثعالب، لقد صارت أكثر جرأة وتأقلمت مع حياتنا المتحضرة، ألا تستطيع التوقف عن الهرّ المخبول بوسطك ذهابا وإيابا فوق كتفي؟ في الغابة سوف نحس بالأمان ولن نتعرض للسطو.

في الماضي كنت لا تعرف معنى الخوف، كنت تملك قبضات قوية، لكن بعد ذلك ومع تقدم العمر صرت تستخدم سكين الجيب، فشفرتها كان طولها كافية، وعند الضرورة يمكنك أن تصيب شخصا في القلب، إما هو وإنما أنا؛ كنت تقول دائما. ردود فعلك مازالت طيبة، فمن مارس الملاكمه ذات يوم فلن ينساها بسرعة، في سنوات شبابك كنت تقوم بالتدريب على أكياس الرمل، وكنت توزع لكماتك القوية على كرة اللكم، وكان رد فعلك أثناء التمرين بسرعة البرق.

كان نقط الحبل يجعلك تلهث إلى حد بعيد، بالذات قفزة الفاصل، كنت تقوم بتغيير الساقين، اليمني واليسرى، بالتناوب. وصحت عندئذ، فليأت فقط فرد، فقط فليتجرا شخص؛ الضربة الأولى ستكون موجهة إلى الذقن، بعدها سيسقطون كالأكياس المبلولة، وضربة ثانية في البطن، عندها لن تكون لأحد أي فرصة للرد. من يريد منازلتي، يجب أن يجيد الملاكمه، كنت تقول دائما. أبي لا تمسكني بقوة، لا تخف، فلن تسقط، أنا بالكاد أستطيع التنفس، ألا تستطيع أن تجلس بهدوء؟ ألا تفهم ذلك؟ هل مازلت يا أبي تتذكر جدالنا حول عقوبة الإعدام؟ بالنسبة لك كانت هذه العقوبة أمرا بدھيا؛ مثل أولئك الأفراد، يجب القضاء عليهم نهائيا، فكل فرنك يتم صرفه عليهم خسارة.

كل من يقوم بجريمة قتل بارد، يجب التخلص منه، ولا يمكن للمجتمع تحمله. لكن هناك دوافع تجعل المجرم مجرماً، على سبيل المثال طفولة سيئة، لا يهمني، عندما يقتل شخصٌ شخصاً بشكل تلقائي، عندما يقتل بدافع الغيرة أو الانتقام، فهذا شيء آخر، عندما تكون العواطف هي السبب، فأنا أواقف على عقوبات أقل غلظة، كنت تقول، يا إلهي، كم تشاجرنا، كم صرخنا. أيام طويلة كنت تقاطعني بعدها مثل هذه المناقشات. رويداً رويداً أحس بعض الشيء بشغل وزنك، منذ بدأت الصعود وأناأشعر بعضلات الفخذين. لحسن الحظ أني مدرب تدريباً جيداً، احترس! سأفرد ذراعي قليلاً، واحد، اثنان، واحد، اثنان، وأقوم برفع كتفي، فعضلاتي مشدودة بعض الشيء، فقط لو بقيت في هدوء، فسيكون الأمر أكثر سهولة.

في البيوت المحيطة بنا والمتاثرة، في المزارع والنجوع والقرى، نرى بعضها وقد أضاء مصابيح الإنارة، وقام الناس بإخلاء طاولات شرفاتهم من الكؤوس وأطفؤوا الشموع الموجودة في الأوعية الزجاجية وقد لسعهم البعض. ستأتي العاصفة الرعدية دون شك، فالبعوضاليوم عدواني للغاية، مازال البعض يجلس أمام التليفزيون وقد قام بفتح النوافذ بسبب الجو الحارق. ومرة أخرى يمر يوم، إن البعضاليوم شيء مزعج، الآن لسعتي واحدة في الرقبة الثانية، يا له من جو حار! يجب أن تقوم بتهوية الكوخ بشكل جيد يا أبي سيكون الجو ساخناً بالتأكيد هناك مثل فرن. لكن ربما تمطر بالفعل، وربما سمعنا قطرات المطر كقرع الطبل على سطح الكوخ، لكن السقف يمكنه التحمل، لقد تحققت من ذلك بنفسي، لقد أنجزنا عملاً جيداً.

هل تتذكر عندما قمت بزيارتكم في دار الرعاية، وكانت ممرضة تقوم للتوب بمسح مؤخرتك، كنت تقف مرتعشاً أمام السرير ممسكاً حافته بقوة، لم تكن قادراً على الوقوف، وساقاك تقاداً تهاران. الآن سننتهي حالاً، قالت الممرضة في ودٍ، لكن في المرة القادمة عليك أن تناولنا في وقت مبكر، عندئذ فقط يمكننا منع الكارثة. جرى البراز على الساقين سائلاً، إنه يصاب بالإسهال عندما يتناول وجبات معينة. لم أكن أعرف أن جلد الإنسان يمكن أن يصبح بهذا البياض، يبدو أنه كان التناقض للبراز الملطخ فقط. فقط لا تتظر إلى هناك، فإن ذلك لن يرضيك، قلت في نفسي، إنه لشيء غير وقور بالنسبة إلى رجل عجوز، لو يتبرز مرة أخرى في السروال، بالذات عندما يتحتم على الابن أن يرى ذلك. لكنني رأيت ذلك، مؤخرتك المترهلة، كانت عبارة عن لحم متجدد، لم تكن هناك أرداف بالمعنى المألوف، ولم يكن هذا أي عجوز يا أبي، إنما كنت أنت، أنت يا أبي.

إرهادات الموت ما هي إلا سكون شرير، حتى وقت قريب كنت تقول إنك ترغب في إنجاز الأشياء الأهم، جوته، فاوست، وبخاصة الجزء الثاني، لم أفهمه أبداً بصورة صحيحة. الآن لديك الوقت، المجلد الأخضر في طبعة بيرهاوزر للكلاسيكيات، من الأربعينيات، ستتجده فوق طاولة سريرك الصغير، بعد ذلك بفترة، وأنت في دار الرعاية، كنت تريد أن أقرأ عليك منه، ونسىت في الحال ما قرأته عليك، بعد ذلك وبعد جمل قليلة دخلت في النوم. هذا الجسد المضمحل والذي نعتمد عليه اعتماداً كلياً، صار مقيداً ومحدوداً الحركة. غالباً ما كنت أجلس بجانبك يا أبي، ونطل معاً من النافذة، كان مجلد جوته الأخضر

فوق الطاولة بجانب منديل المائدة مباشرةً وعلبة السكر، لم تتطق بكلمة، ومرت السحب في السماء بسرعات متباعدة، فالسحب المنخفضة كانت سريعة بفعل عاصفة الريح، أما السحب في الطبقات الأعلى فكانت تمر بهدوء، كان يوماً حاراً مثل اليوم، و العاصفة رعدية على وشك الهبوب. انعكست السحب الداكنة على صفحة البحيرة فصار لونها رمادياً مخضراً، وفوق الأمواج تكونت قمم صغيرة من الرغوة، وارتقت السفن الشراعية عالياً فوق المياه، من حين لآخر كان يلمع صاري سفينة في نور الشمس الغاربة المقابل. والمتزلجون على الماء انطلقوا بسرعة فوق رذاذ المياه؛ وفي الغرفة كانت رائحة البراز والبول الكريهة في كل مكان، وأيضاً رائحة مواد التنظيف، والقرنبيط، بعدها جاءت قهوة بعد الظهر، وحصلت على قطعة من كعكة المشمش. إنه لا يستطيع أكلها للنهاية، قالت الممرضة، اقطع قطعة لنفسك، فإلقاء البقية خسارة. كنت مازلت حتى ذلك الحين تستطيع تناول الطعام بنفسك، وقمت أنا بقطع قطعة الكعك إلى لقطات صغيرة لك، كانت القطع الصغيرة في الحواف من السهل ثقبها بالشوكة وإ يصلها للفم، أما القطع الأخرى، من دون الحواف، فكانت تسبب لك مجهوداً، وعندما أردت أنا مساعدتك، قمت بإزاحة يدي بفظاظة جانباً. والقطع الأخرى لم يعد ممكناً ثقبها بالشوكة، وحاولت أن تعرفها في الجانب بـسن الشوكة، لكنها كانت تتزلق في كل مرة بعيداً، حتى إنك اضطررت لاستخدام يدك الأخرى للمساعدة. كل قطعة كانت تتزلق من الشوكة، وفي النهاية صارت طاولة الطعام كلها ملطخة، أيضاً فوق بنطال حلّتك الرياضية كانت هناك قطع مهروسة من المشمش، وأردت

التقاطها بأصابعك، كما حاولت تنظيف نفسك بالمنديل، ولكن بقايا ورق المنديل اختلطت بقطع المشمش المهروسة، والغلاف الأخضر لمجلد جوته كان يلمع في ضوء الشمس المنحدر، وفي زاوية سقوط هذا الضوء، صارت بقع السمن على البنطال واضحة بشكل بارز.

هكذا، يا أبي العزيز، الآن لا بد لي من التوقف، وأن أعمل على ضغط عمودي الفقرى، يا له من جو حار، لو تأتي العاصفة الرعدية قريباً، إن حماماً بارداً الآن من شأنه أن يجعل الاسترخاء. يا ترى ماذا تفعل مارا الآن؟ أتراها تفتقدني؟ ربما يجب عليّ أن أقوم بالخطوة الأولى، عليّ ترك المجال لها بعض الشيء، وإن أحسست بأنها مُكرهة، وهل أرغب أنا بالحقيقة في المصالحة معها، لكن أنا لا أريد على أي حال أن أستمر في العلاقة بهذا الشكل.

أنا لا أريد أن أكون متوسلاً بعد الآن، أم أبدأ في علاقة جديدة؟ من يريد بالضرورة رجلاً عمره خمسون عاماً؟ للمرة الأولى أحس بأنني لم أعد جذاباً لعلاقة جديدة؟ وأسئلة نفسي دائماً نفس السؤال، أنت لا تستطيع الهرب من نفسك.

أبي، أنا لم أعد أعرف، ماذا ينبغي أن أفعل، هل عرفت أنت أيضاً مثل هذه المشاعر؟ أنا لم أعتد مثل هذه الأمور، كنت دائماً أجد حلولاً، وأقوم بعمل خطط وأفكار جديدة، لكن الآن لا أستطيع أكثر من عمل رسوم مضحكه، سرعان ما تتحول إلى رسوم كاريكاتيرية عبثية لنفسي وعن مستقبلني. هل العمر هو السبب؟ إن الآلة الداخلية في أعماقي والتي تعطي لحياتي معنى، توقفت فجأة عن الدوران، في الماضي كان اعتمادى عليها كبيراً.

كيف يمكنني أن أبدأ حياتي مرة أخرى في حين إن الآخرين في مثل عمري يبدؤون في التراجع. استطاع الابن الأصغر، شديد الإعاقة، مرة أخرى شد نفسه عالياً إلى العمود، والذي كان الأب قد قام بتركيبه له بحرافية ماهرة منذ زمن، وفي الأعلى وفي أقصى مكان يستطيع أن يصل إليه بعضلات ذراعيه المتشنجـة، تتمكن من الإمساك بالعمود وضم يديه القويتين حوله، ودفع نفسه بكل قوـة إلى الأعلى حتى تتمكن في النهاية وبحركة دائـرية خفيفة من أن يـسقط بجنبـه فوق السرير، وبعد عدة محاولات غير مجـدية استطاع أن يـفك مكابـح الكرسي المتحركـ، والذي كان قد تحرك بعيداً عن السرير بفعل الأحداث السابقة، وتتمكن من جعلـه في الوضع الصحيح، بعدها قام بـثبيـت مـكابـح الكرسي مـجدـداً، هذه المـرة يجب أن تـتجـحـ المحـاولةـ، فهو لا يـريدـ أن يـسـقطـ من فوق مقـعدـ الكرـسيـ ثـانـيـةـ، قـامـ بـمـسـحـ يـديـهـ المـبـلـلتـينـ بـالـعـرـقـ بـفـعـلـ الإـجـهـادـ وـالـطـقـسـ الـحـارـ بـغـطـاءـ السـرـيرـ، بـقوـةـ وـالـآنـ يـجبـ أـلاـ يـنـزـلـقـ حـينـماـ يـقـفـ مـنـتصـباـ مـرـةـ ثـانـيـةـ وـمـمـسـكاـ بـالـعـمـودـ. قـبـضـ بـقوـةـ عـلـىـ الـعـمـودـ الـخـشـبـيـ وـضـمـ أـصـابـعـهـ حـولـهـ كـمـاـ لـوـ أـنـهـ يـقـومـ بـخـنـقـ عـدـوـ لـهـ، تـشـبـثـ قـبـضـتـهـ بـالـعـمـودـ وـكـأـنـهـ وـسـيـلـتـهـ الـوحـيدـ لـلـنـجـدةـ حتـىـ لـاـ يـسـقطـ إـلـىـ الـهـاوـيـةـ، وـعـدـلـ نـفـسـهـ فـيـ الـوـضـعـ الـمـنـاسـبـ، وـتـرـكـ يـديـهـ بـوـصـةـ بـوـصـةـ تـنـزـلـقـ عـلـىـ الـعـمـودـ لـيـهـبـطـ إـلـىـ أـسـفـلـ، فـوـقـ مـقـعدـ الكرـسيـ الـمـتـاحـ، هـذـهـ المـرـةـ يـجـبـ أـلاـ يـجـلـسـ فـيـ الـمـكـانـ الـخـطـأـ. قـامـ بـإـسـنـادـ الرـدـفـ الـأـيـسـرـ مـنـ مـؤـخرـتـهـ عـلـىـ الكرـسيـ، وـاسـتـطـاعـ بـمـهـارـةـ أـنـ يـدـفعـ إـلـىـ النـاـحـيـةـ الـأـخـرـىـ بـدـوـنـ أـنـ يـتـرـكـ الـعـمـودـ، وـتـمـكـنـ أـخـيـراـ مـنـ أـنـ يـجـلـسـ بـمـؤـخرـتـهـ كـاـمـلـةـ عـلـىـ مـقـعدـ الكرـسيـ الـمـصـنـوعـ مـنـ الجـلدـ الصـنـاعـيـ، لـقـدـ نـجـحـتـ مـحاـولـتـهـ!

يا أمي! نادى مرة أخرى: يا أمي! ردي علىّ! بعدها بدأ باستخدام حركات يده المعتادة، ومقابض اليد المعتادة، التي يضغط بها إلى الأمام بشكل متقطع فوق الحلقة المصنوعة من الكروم الصلب والمركبة في عجلة الكرسي، يدفع إلى الأمام بقوة ودون ضغط، يترك يديه لتزلق، إلى الأمام وإلى الخلف، رغم تدريبه الجيد على استخدام الكرسي المتحرك، لكن في حالة ارتباكه هذه، كان الأمر بالنسبة له ليس سهلاً، لأن يدفع نفسه ما بين السرير وطاولة السرير الصغيرة والحائط إلى الخارج، إلى الممر الصغير المجاور بين دورة المياه وغرفة الحمام، والممر الكبير الذي كانت الأم تقضي فيه الليل، وذلك بعد إغلاق الغرف في الطابق العلوي، كان يريد التوجه فوراً إلى حيث ترقد الأم، لكنه كان يخشى مما يمكن أن يراه، كان يخاف من رؤية الأم، أحس في نفس الوقت أن مثانته على وشك الانفجار، وأنه لم يعد في استطاعته حبس البول، وأضطر للعض على أسنانه. دفع نفسه في اتجاه دورة المياه، ودفع الباب دفعة قوية، كي يبقى مفتوحاً على آخره لفترة كافية حتى يستطيع أن يدلُّ بكرسيه المتحرك إلى الداخل.

اضطر مرة أخرى إلى شد فرامل كلتا العجلتين في الكرسي، وبمساعدة عمود مثبت أفقياً في الحائط، تمكن من رفع نفس عالياً، إن هذا أمر بسيط، لقد اعتاد على تأدية هذا العمل دائماً، بعدها شد بـإحدى يديه بنطاله إلى الأسفل، وباليد الأخرى حاول حفظ توازنه، يجب عليه إنزال البنطال إلى الأرض، لأنه لا يريد تلويث البنطال بالبول، وأضطر إلى الجلوس فوق المرحاض بيضاء، وبعد إنزال ماء السيوفون، قام بالقبض على العمود وحاول رفع

نفسه مرة أخرى عالياً، وباليد الأخرى حاول إمساك البنطال وشده إلى الأعلى. في مثل هذه الحالات كانت الأم دائمًا تساعد، فالامر بالنسبة له لم يكن سهلاً، كان على وشك أن يفقد توازنه مرة أخرى عندما قام بلف نفسه وهو ينحني، لكنه تمكّن من الإمساك بالبنطال، ونجح في رفعه حتى الركبة، غير أنه لاحظ أن رجل البنطال قد انزلقت من ساقه، فاضطر معها لتركه ينزل على الأرض، وحاول مرة أخرى أن يجد طريقاً لساقه في رجل البنطال. مازال ممسكاً بالعمود بقوّة واضطرب للانحناء كي يفتح رجل البنطال بشكل يسمح لقدمه بالدخول فيها، لكنه في هذا الوضع لم يستطع أن يرفع قدمه من فوق الأرض بسبب إعاقته. لم يتمكن من إيجاد مدخل رجل البنطال، تشابكت يداه مع قماش البنطال، ووجب عليه ممسكاً بالعمود رفع نفسه إلى الأعلى مرة أخرى، مقاوماً شدّا عضلياً مفاجئاً، وتوقف لحظة قصيرة ليلتقط أنفاسه، كان جسده مبللاً بالعرق، والتصق الجزء العلوي من ثيابه بصدره، بعد عدة دقائق حاول وهو في حالة الوقوف رفع قدمه، كي يضعها في رجل البنطال المفتوحة، بعدها إمساك مقبض الكرسي بيده اليمنى، محاولاً الانحناء ببطء.

نجح أخيراً في القبض على طرف بنطاله، ورفعه بعض الشيء عالياً، ثم أدار نفسه فجأة، وفي نفس الوقت ظل قابضاً على العمود، وكانت قبضته حديدية، لقد كادت الطاقة التي بذلها في تحريك جسده تخلخل عظامه وتمزق أوتار يديه، مثل بهلوان جمع كل قواه؛ ومتهدراً كرافع أثقال تمكّن من العودة إلى مكانه في الوضع الأصلي والصحيح، والذي كان فيه من قبل. لكن بنطاله عاد الآن للسقوط مرة أخرى على الكاحل، والتصق

شعره برأسه فبدا مثل قبعة مبللة، وسمع دوّي دمه في أذنيه. نادى يائساً: يا أمي! لا بد أن شيئاً فظيعاً قد حدث. وبدأ ثانية في ارتداء البنطال، لكن قدمه كانت قد انزلقت مرة أخرى من رجلي البنطال، بدا عليه اليأس، لكنه في نفس الوقت أدار نفسه بعيداً وبقوّة كي يستطيع الجلوس على مقعد الكرسي المتحرك، أما البنطال فقد تركه متسللاً فوق أحد الكاحلين.

قام بغسل يديه تلقائياً كما كان دائماً يفعل، وكما تم تعليمه طوال الوقت، فلدى المعاين بالذات يلعب عامل النظافة دوراً مهماً، قام بعدها بتتجفيف يديه ومسح بالفوطة على وجهه المبلل بالعرق، بعد ذلك حاول إخراج نفسه، بحركات كان مدرباً عليها، مرة ثانية من دورة المياه متوجهاً إلى الممر، أدار كرسيه المتحرك ناحية الممر الكبير، حريضاً على ألا يسقط بنطاله كاملاً، محاولاً سحبه على الأرض، ظل لحظة متربداً، كان خائفاً من المنظر، والذي سوف يكتشفه حالاً، إنه لا يريد بعد أن يرى الحقيقة، صورة الأم العظيمة هذه، وجه الأم الشاحب، بلا حياة. وتخيلها أماماه، وعيناه جامدتان، والفم المفتوح واللسان خارج الحنك. كان يخشى أن تروعه نظراته إلى جسد الأم الميت، مرت هذه التخيلات بذهنه سريعاً. كيف يا ترى يبدو شكلها، ربما كان نصف جسدها مغطى، أو عارية تماماً وساقاها ممددتان متبعادتان عن بعضهما، وأعضاء جسمها مجدهة من جراء صراعها مع الموت، ربما كان الدم سائلاً من فمهما، لكن يجب علىّ أن أساعدها.

ودفع نفسه مصمماً إلى الممر نصف المظلم، وكاد في ارتباكه أن يغفل رؤيتها، كانت ترقد كعادتها مغطاة في السرير، قال في

نفسه ربما كان كل شيء على ما يرام، وناداها متربداً بعض الشيء: يا أمي! وساد الصمت مرة أخرى، ولم يخرج منها أي صوت. تحرك بكرسيه مقترياً للغاية من سريرها، لكنه ومن موقعه في كرسيه لم يتمكن من لمسها، كان عليه أن يرى إن كان جسدها ما يزال دافئاً أو إذا كانت ما تزال تتنفس، أراد أن يتأكد، فترك نفسه لينزلق ببطء من الكرسي المتحرك إلى الأرض، وأثناء ذلك جرحت ساقه بعد اصطدامه بمسند القدمين المعدني في الكرسي. استدار حتى أصبح يزحف على أربع، واتجه إلى سرير الأم زاحفاً، وحاول أن يقف أمام السرير، حاول أن يرکع على ركبتيه، ونجح أخيراً أن يضع أحد أصابعه على وريد رقبة الأم، لم تكن الأم ميتة، فقد أحس نبضاً ضعيفاً، من المحتمل أنها أصبت بسكتة دماغية، شفاتها كانتا نصف مفتوحتين، ولعاب جاف قديم كان لاصقاً على ذقنها. قال: يا أمي، لا تخافي أنت لست وحدك، أنا هنا موجود وسوف أجلب مساعدة.

أخي العزيز.. لم أكن أبداً سعيداً في الخروج معك إلى الأماكن العامة، كنت أعتقد دائماً أن الناس تحملق في البقعة الحمراء الكبيرة. بعد فترة اختفت هذه البقعة تحت الشعر، لقد صرت فجأة طفلاً كبيراً في عربة الأطفال الصغيرة، وبدأت علامات الدهشة تظهر على وجوه الناس: هل جُن الوالدان؟ أم أن هناك شيئاً ليس على ما يرام مع هذا الطفل؟ كان المطعم بالنسبة لي مكاناً للعقاب البدني، كنت أود لو أستطيع إخفاءك تحت البطانية، لو كان على الأقل في إمكاننا تعليق لافتة على عربة الأطفال الصغيرة، ونكتب عليها: إنه فقط قصور في النمو، وسوف يكتمل، من فضلكم ممنوع الشفقة.

الأطفال المصابون بمرض الشلل الدماغي هم في العادة أطفال جذابون، ولهذا السبب خاصة هم أيضا سعداء، فالامر ليس له علاقة بكون الطفل طبيعيا أو غير طبيعي، الأمر ليس إلا اضطرابا حركيا. وثبتت الأم ثقة كاملة في إيمانها، في مثل هذه الحالات يحتاج الإنسان إلى الدين، فهو ينقصكم، هذا هو كل ما في الأمر، أنتم في حاجة إلى ديانة قوية مؤثرة، قالت الأم. لن يستطيع المشي بطريقة طبيعية أبدا، ابني لن يستطيع المشي بطريقة طبيعية أبدا، لحسن الحظ أنك لم تكن مت الخلفا عقليا، والأب لم يصدق أنك غير طبيعي، وأنا في المدرسة أصبحت في تراجع دراسي، هل أنت في الحقيقة غبي أم أنك تتصنع الغباء كي تغيبني؟ وجه الأب كلامه لي.

يا له من هراء، إن الإعاقة الجسدية شيء مختلف تماما يا له من شيء فظيع، كيف تتكلمون؟ قالت الأم. بهذه الطريقة لا يمكن لطفل أن يصبح سعيدا، إنه ليس معاقا بالمرة، إنه يعاني من اضطراب حركي خفيف.

هكذا يا أبي، لقد استعدت إيقاعي مرة أخرى، ليس سريعا جدا، وليس بطريقا جدا، هأنذا أغذ الخطى بقدر متساو، لقد اعتدت على وزنك، عندما تتصرف بهدوء، فلا تهتز ولا تتململ، يصبح بمقدوري أن أسير بك لساعات طويلة، قريبا سوف نصل إلى الكوخ، هل تظن أن كلا منا سوف يتحمل الآخر؟ الأب والابن؛ على مساحة ضيقة كهذه؟ أنت على أريكة، بجانب الحائط، وأنا على أخرى، في الجانب المقابل؟ ربما لا أستطيع النوم في الليل، سوف أسمع أنفاسك، وأسترق السمع بدقة، ربما سأكون خائفا أن تتوقف فجأة عن التنفس، أن تعاجلك حشارة الموت، وأن

تتوقف أنفاسك نهائياً عن الصفير، وتأتي النهاية على نحو مفاجئ، وعندما ينتهي كل شيء.

سوف ينسجم كل منا مع الآخر، ربما تبدأ في الكلام مرة أخرى، لعل عقدة لسانك تتفاوت في هذا المكان المختلف، فقط أنت وأنا، هناك سيكون من الممكن تحقيق الكثير، ستري ذلك. هل ما زلت تتذكر كيف أنتا، بعدما انتهينا من بناء الكوخ، قمنا سوياً بالاحتفال، مساء يوم الجمعة، كنت قد قمت بإحضارك فوراً بعد انتهاء العمل؟ قبلها كنت قد ابتعت بعض الطعام، وقمت أنت بتدبير النبيذ، وكنت مندهشاً لانتقاءك أنواعاً جيدة. كالعادة كنت ترضي بزيورخر لأندفاين، وتشيد بطعمه اللذيذ، لقد بذرت كثيراً من أجل الاحتفال بتلك المناسبة. عندما صعدنا من موقف السيارات إلى الكوخ، بدأنا أنا وأنت في التعرق. أيضاً في ذلك الوقت، كان مساء صيفياً دافئاً، لكن في وقت مبكر من العام، نهاية يونيو، بداية يوليو. في البداية سرنا صامتين خلف بعضنا، ثم صحت أنت فجأة: لا تمشِ سريعاً، أنا لم أعد شاباً. أما أنا فلم أخفض من سرعتي، كنت أريد أن أرى هل ما زال في استطاعتك تحمل المشي، فلقد كنت دائماً معتاداً عليه. كلما اقتربنا حقيقة من هدفنا قررت المسافة بيننا.

وعندما أصبح الكوخ في مرمى النظر، سمعت تلهث خلفي بانتظام، وبدأت تسرع خطواتك، حتى إنك استطعت أن تتجاوزني قبيل الوصول للنهاية. كان العرق يليل جبينك، وشعراتك الرقيقة ملتصقة برأسك، كان شكلك يبدو وكأنك مكثت طويلاً في حمام ساخن. في الكوخ كان الجو خانقاً، حتى إنه كان من الصعب التنفس، ورائحة الخشب الطازج والصنوبر كانت تملأ المكان في

الخارج، حيث الشرفة الصغيرة المصنوعة من الخشب الخام، قمت أنا بإخراج طعام العشاء، كان الجو مختلفا هنا في الأعلى بالمقارنة بالمعتاد. حتى الآن كنا نأتي دائما للعمل في البيت، هذه المرة نحن هنا فقط من أجل أنفسنا، كيف يمكن أن يمر المساء هنا؟ كنت آمل لو اقترب كل منا إلى الآخر، لو تحدثنا سويا، ربما كان في إمكاننا إيضاح بعض الأمور، كان يهمني كثيرا أن تكون علاقتنا طيبة.

كنت أريدقضاء مساء لطيف معك، مساء طبيعي تماما وبسيط، ليس عاطفيا لكنه خال من الشجار. حسبما أتذكر، قمت أنا بنزع غلاف علبة اللحم المجفف، ووضعت شرائط اللحم المنفردة على طبقين. كلما استخدمنا أطباقا أقل كان غسيلنا لها أقل، في هذا الأمر، كان رأينا واحدا، في البداية تبادلنا الحديث في بعض التفاهات، لم تكن لدينا مشكلة في هذا، كنا نحب أن نتكلم بتلميحات ساخرة، كلانا كان لديه ميل لسخرية سريالية معينة. إذن، في نخبك..! قلتها ونظرت إلي، كنت أخشى الخروج من هذا المزاج الجميل، ولكنك فجأة جعلتنا نستمتع باللحظة. في نخب بيتك! لقد نجحنا فعلا بفضل معاونتك، لم أكن أتخيل أن في إمكانك إنجاز ذلك العمل، كل الاحترام لإرادتك وصمودك.

بدأت الشمس تغرب ببطء، والطيور تفرد وتبت檄 قبل أن تخلد للراحة في أعشاشها وعلى ذرى الأشجار. سريعا صار نصف الزجاجة فارغا، لقد كان الطقس الحار يزيدنا عطشا، واللحم المملح جفف حلوقنا، وكلما مر الوقت تحدثنا دائما أكثر، وفجأة أحسست بالارتياح.

استطعت أن أترك نفسي واستسلمت كليا لهذا المزاج. خلاف ذلك كنت دائما مهتما بمراقبة العلاقة بيننا، وعندما قمت بفتح

الزجاجة الثانية وتذوقها، كنا بالفعل قد بدأنا في الثمالة، شربنا كؤوسنا وابتسم كل منا للأخر. هل مازلت تتذكر؟ كان حديثا طيبا، ضحكنا كثيرا، وفي هذه الأثناء كان قد حل الظلام. كنا نجلس في ضوء شموع الأوعية الزجاجية، وكنا نسمع من حين لآخر صياح بومة صغيرة، وخشخشة الفئران تحت أرضية الشرفة.

أحسسنا سويا بالحاجة إلى التبول في نفس الوقت، وعند وقوفي لاحظت أنني ثمل بعض الشيء. عفوا! قلت أنت ضاحكا، هل تشعر بذلك أيضا؟ انتهينا من ذلك بينما كنا نترنح قليلا، لم أكن متأكدا إذا كنت قد تبولت على حذائي أو حتى على سروالي، ولكنني في الحقيقة كنت غير مكترث.

وعدنا للجلوس إلى الطاولة، وكانت الحواجز بيننا قد زالت، وضحكنا، وانتابتا حالة من المرح، أعتقد أنه في النهاية قمنا بالغباء سويا. هل مازلت تتذكر؟ بعدها سقطنا فوق الأريكة، وتبادلنا نكتتين أو ثلاثة، وقهقها، بعد ذلك أصبح الجو هادئا، ونمنا حتى وقت متأخر من الصباح. هل تسمع في الحقيقة ما أقول أم يجب أن أتكلم بصوت أعلى بسبب ضجيج ماكينات الحصاد؟

هل تتذكر الكلب الأول؟ هذا البوكسير، لقد قمت بإبعاده، رغم قيامك بضرره، كان من الصعب تربيته، ورفض إطاعتك، لقد خذلوك، وفشل كل المحاولات معه، لقد كدت تقتله. صحت: مع الكلب القادم لن يحدث معي نفس الشيء، أنا أريد جروا من مكان جيد لتدريب الكلاب، وقمت بقراءة كتب ومجلات متخصصة، وجمعت المعلومات من الزملاء في النادي الرياضي لتدريب الكلاب، وبعدها، أنا مازلت أتذكر جيدا، رغم مرور أكثر

من أربعين عاما، كان الجو خانقا، وطيور السنونو كانت تحلق منخفضة، قالت الأم: سوف تهب عاصفة رعدية بالتأكيد، وعبر البحيرة تجمعت الغيوم. كان الجو قائظا مثل اليوم، وصحت أنت: خنافس شهر مايو. كلا، قلت أنت، إنها خنافس شهر يونيو، لكنها تشبه خنافس مايو، وأوضحت لي أنها صغيرة بعض الشيء، وغالبا ما تظهر في شهر يوليو. انظر هناك، سرب بأكمله من الخنافس، هناك بجانب أشجار الخمان، هناك، الآن سقطت واحدة في طبق الحساء، صحت أنت غاضبا، يا لها من قذارة! وقمت بصيدها بالملعقة، لا، لا تلمسها، سوف تستعيد عافيتها مرة أخرى.

وبالفعل برزت مجسات استشعار الخنافس خارجة من الحساء اللزج، وانفتح ظهرها المدرع، وخرجت منه أجنبتها مثل منديل مبلل من الحرير، وقامت بفرد الأجنحة، وأطلقت لعدة مرات طنينا كطائرة ذات مراوح قبل الإقلاع، والتصقت بقایا الحساء اللزج بساقها الصغيرة المليء بالشعر، وفجأة وبتشاقل ارتفع أزيزها وطارت في الهواء، طارت عدة أمتار بارتفاع منخفض فوق الأرض ثم سقطت على العشب.

من المحتمل أنك نسيت ذلك المساء، فقد كان بالنسبة لك غير ذي أهمية.

في تمام الثامنة سوف نغادر، قلت أنت، وسنصل في التاسعة عند مُربي الكلاب، كي نحضر الكلب. في اتجاه رايبيرزفيل كان المطر يهطل بالفعل والسماء مظلمة. وهنا لوحّت الأم فجأة بذراعيها في الهواء، وصرخت: خنافس في شعري، وقفت الحشرة على ظهرها فوق الطاولة، منفعلة ضربت الأم بالمنديل

فوقها، صحت أنت: اتركي هذا، إنه كائن حي. صرخت الأم: أنت عاطفي، وهوت مرة أخرى بالمنديل المطوي فوق الحشرة، اندفعت مادة سائلة صفراء من جسم الخنفساء الأسود، وتحركت أرجلها الصغيرة حائرة. أقتلي الحشرة تماما على الأقل، لا أحد يجعل مخلوقا يعاني، قلت أنت، وقمت بسحق الحشرة بقبضتي يدي المشدودة، فسقط كوب زجاجي، وتحولت الحشرة الصغيرة إلى هريس. يا له من شيء يثير الاشمئاز، صاحت الأم، وألقت بالمنديل فوق الحشرة. لماذا كان يجب أن تكون دائمًا عنيفة؟ أما أنا فقمت برفع طرف المنديل إلى أعلى بحذر، ونظرت مفتونا، وفي ذات الوقت باشتمئاز إلى الحشرة المدهوسة. رجل الخنفساء الصغيرة كانت مازالت ترتعش، إن هذا فقط مجرد رد فعل لا إرادى، لقد ماتت الحشرة، ها أنت ترى أن الرأس مهروس، هكذا فسرت الأمر لي. أثناء ذلك صاحت الأم: لا تعمروا ضجة بسبب خنفساء. إنه كائن حي مثلنا، لكنك لا تريدين أبدا إدراك ذلك، أجبت أنت موبخا.

وفجأة تخيلت ماذا يخرج مني؟ مخاطر أصفر اللون أم دم؟ أم شيء آخر؟.. وعلى نحو مفاجئ شعرت بالغثيان، أحسست بالاختناق في حلقي، وتقीأت على المائدة، على طبقي، على الخنفساء، وعلى صدرية الأم، ربما تتذكر ذلك الآن. ما هذا؟! صرخت أنت: يا له من عمل مقرئز!.. هل رأيت ما فعلت؟! لقد أنهيت طعامك سريعا، لم تمضفه جيدا، رميته رميا في جوفك. أما أنا فقد كان هنالك طعم مرُّ في فمي، نظرت إلى ما تققيأته، ما زال من الممكن التعرف على كل شيء؛ البطاطس المقلية، قطع اللحم، بقايا الطماطم، كل شيء مخلوط ببعضه ولزج. قلت لي:

إذا كنت مازلت تشعر بالغثيان فلا ينبغي أن تركب معنا، لكن أنا أريد أن أحضر الكلب الصغير. تهتد أنا وتقيات في الحال مرة أخرى، لكن هذه المرة كمثل أحشاء الخنساء! صرخت بأعلى صوتي، وقلت: أريد أن أذهب معكم. من يعرف؛ ربما يعاني الصغير من الحمى، وضعفت يدك فوق جبهتي، كما كنت تفعل دائمًا أو عندما كنت تشك أن شيئاً في ليس على ما يرام.

إن حرارته مرتفعة! لكنني أريد أن أذهب معكم! سوف نرى، قالت الأم مواسية، ليس لديه حمى، إنها فقط سخونة الجو، لقد كان كل هذا كثيراً بالنسبة له، لماذا تستثيره دائمًا بهذه الطريقة؟ لن يدخل السيارة معي، فقد يتقيأ مرة أخرى، على مقاعد السيارة. لكنك لا تجلب كلاباً جديداً كل يوم، وفي النهاية فهي تجربة جديدة بالنسبة لطفل. بعد ذلك بنصف ساعة، ركبت معك وغادرنا، وهمست لي: تماسك ولا تتقيأ في السيارة. في الخارج، كان الظلام قد حل، وببدأت قطرات المطر الأولى تضرب زجاج السيارة الأمامي، وبعدها ظهرت ومضات برق، تلاها صوت رعد قوي قصير جاف.

قلت: لا تخف، نحن محميون داخل السيارة، وهناك تحويل للبرق. وتخيلت أنا، أن البرق ضرب السيارة، تخيلت كيف أن الأبواب، وكيف أن السقف، وكيف أن معدن السيارة كله توهج باللون الأحمر والأبيض. قمت بضم وسادة إلى جسمي، وظل البرق طوال الوقت يضيء داخل السيارة. بعدها مباشرة ضرب البرق ضربة قوية، وصحت أنت متحمساً: نحن الآن في وسط العاصفة، مباشرة بعد البرق بدأنا نسمع الرعد. قلت لي: لا تخف، لقد أخبرتك أننا محميون داخل السيارة. كيف انهم

المطر كأنه دلاء من الماء! لم نستطع أن نرى شيئاً تقريباً من السيارة، وكأننا كنا نسير تحت الماء!! بابا، أريد أن أتبول، تمسك، ولكن الوقت كان قد فات، لكن لا، بالذات فوق الوسادة، إنها هدية أمك في عيد ميلادي، وأعتقد أنه لا يمكن غسلها، كم كان ذلك صعباً، شيء يثير الاشمئاز، كيف كانت رائحتها النتة. أجل، لقد قلت إنه كان ينبغي عليك البقاء في البيت، ولكنكم تعرفان دائئماً أكثر مني.

الآن يا أبي العزيز، عليك أن تمسك نفسك جيداً، الآن يأتي الصعود الأول السهل، لا تحمل هماً، أنا أرى بما فيه الكفاية، سوف أكون منتبهاً بسبب ماكينات الحصاد، إنها جميعاً موجودة في الجزء الأسفل من الحقول، هل مازلت تتذكر؟ عند مُربى الكلاب، كانت الأرض لينة، صرخت: انتبه، إنك تلوث نفسك، كانت الكلاب تتبخ، تعوي وتزمر خلف سياج من السلك، قال مُربى الكلاب بفخر، لا أحد يمكنه دخول هذا المكان حياً، فما بالك بالخروج منه مرة أخرى، نحن نريد كلباً كهذا بالضبط، قلت أنت، كلباً للحراسة وليس كلباً للتدليل. أضاء مُربى الكلاب بكشاف النور داخل القفص: لقد وجدت ما تطلبه! ورأيت أنا من خلال شعاع الضوء، كيف أن كلباً يكشف عن أسنانه وآخر يعض في سلك القفص: هذه هي الأم، في القفص المجاور قفز كلب ضخم عالياً وألقى بنفسه على السياج: هذا هو الأب، لا أحد يمكنه الدخول إلى هذا المكان غيري، صدقني! انتظر لحظة. ذهب إلى القفص وعاد بجرأة صغيرة، لونه خليط من الأسود والبني وذو حوافر كبيرة. هذا هو الكلب المناسب لكم، وهذا هو التوثيق الملائم لفطامه: اسمه هارو فون فيلد باختوبل، كلب من سلالة ممتازة

ولن يخذلكم. وفي رحلة العودة إلى المنزل، سمحت لي بأن يجلس الجرو هارو على ركبتي، أنا مازلت أرى أمامي حتى الآن أننيابه البيضاء الكبيرة مكتملة النمو، وعينيه الواسعتين وهو يحدق كالجنون. لكن فراء هارو كان ناعماً للغاية، ولسانه الذي كان يلعق به أصابعه كان دافئاً، وبطنه الصغيرة كانت مازالت عارية تماماً، هكذا تكون الحيوانات الصغيرة، قلت أنت، دعه يجلس فوق المفرش البلاستيك، حتى لا يتبول على المقعد. تأكد من ذلك! أنا أعتمد عليك! لكن الوقت كان قد فات، لأنه تمدد قليلاً واندفع البول قوياً، لقد قام هارو بالتبول في اتجاه ظهر المقعد الأمامي.

يائساً حاولت بالمنديل الورقي مسح ظهر المقعد. إن اسم هارو جميل، هل من الممكن أن يبيت هارو هذه الليلة في داخل المنزل؟ كلا، الكلب مكانه بيت الكلب، ويجب ألا يُدلل، لكن على الأقل الليلة الأولى؟

أبي، يجب عليّ أن ألتقط أنفاسي، إن الصعود كان أكثر إرهاقاً مما تصورت. هل يعجبك الجو هنا في أعلى التل؟ كان المشي دائماً بالنسبة لك متعة كبيرة، إنك بالتأكيد تفتقده كثيراً في الأوقات الأخيرة. في الماضي كنت تمشي كثيراً وانتظام، وصرت مع تقدم العمر تمشي بانحناء خفيفة وتجرّ قدميك، لكنك رغم ذلك كنت تمشي بانتظام، وبشكل لا يعرف الكلل كنت تسرع الخطى، كلا، كلا، كنت تود إنجاز المسافة كلها دائماً في نفس الوقت، بل في الآونة الأخيرة كان بإمكانك تسجيل رقم قياسي، قلت أنا لأصدقائي الذين شاهدوك وأنت تسير في الشارع، لقد بدا كبر السن عليك قليلاً في الأوقات الأخيرة، أنا لم أرغب أبداً

في أن يصير أبي رجلا عجوزا، ضعيفا. كنت أريد أبا، أيضا في الكبير، قويا، رائعا، متميزا، حاضر الذهن، مدهشا. الكلب مكانه بيت الكلب، كنت تصر على ذلك وترفض التدليل. إن الكلب يجب أن يعتاد على ذلك من أول يوم، إنه في النهاية حيوان، ويجب عدم أنسنة الحيوانات. لكن هارو كان يحب اللعب، كان يستلقي على ظهره، ويريد مداعبته في رقبته وصدره وبطنه العارية. لكنك بعد ذلك وضعته في بيتك الكبير خاص به، مطلقا باللون الأصفر وذي سقف أسود، و مليء بالقش الخشن والشائك. كان هارو لأول مرة ينفصل عن أمه، وظل يعوي طوال الليل، لكن اللعين لم يجد إليك طريقا. وعندما تسللت إلى غرفة نومكما وطرقت على الباب، صحت قائلا: دعني أنم، إنه سوف يعتاد على ذلك. الكلب يجب من البداية أن تتم تربيته جيدا، والشيء الأهم في تربيته هو عدم تغيير الرأي، إما أن تصبح سيده ومعلمه وإما أن يفعل بك ما يشاء.

كانت المارة تصيح: أوه.. يا له من كلب لطيف! وكنت ترد بانفعال: من فضلكم لا تداعبوا الكلب. كنت تقول إن العلاقة به ينبغي ألا تكون حميمة، لكنك استثنيت الأطفال. وبعدها بدأت مرحلة الترويض، فصارت عضوا في نادي الكلاب المحلي، مباشرة من البداية كان التخصص رفيقك، وكانت تقول أنا لا أريد تكرار نفس المشكلات مع أنشى الكلب البوكسير، تلك الغبية. صباحا كل يوم أحد، وفي جميع ظروف الطقس، كنا نخرج مع الكلب، ليس هناك طقس غير ملائم، كنت تقول دائما، هناك فقط ملابس غير ملائمة. وكانت البداية، عاليا إلى برج المند، وكان واضحا؛ هارو كان كلبا مطينا منصاعا.

قال المدرب: عندما يكتمل نموه، سيصبح حارساً جيداً، فهو بطبيعته لديه رغبة كبيرة في الهجوم!

ورأيت أنا كيف كان الكلب يقفز فوق عوائق دائمًا ما ترتفع أثناء هطول المطر الشديد، وكيف كان يتغلب على حواطط التسلق، وكيف كان ينسلاً من تحت العوارض! و كنت أنت تريد معطفاً من الجلد وقبعة للحماية من المطر. في البداية أخذت تلعب مع الكلب الصغير، وكنت تقول، إنه مازال جروا، وكان يتلقى منك من حين لآخر ضربة بجريدة مطبوعة. يجب ألا يرى الحيوان من الذي يضره، حتى لا يخشى الأيدي ويصير جباناً، فالعقوبة يجب أن تكون على نحو مفاجئ، لقد قمت بجمع معلومات دقيقة عن هذا الموضوع.

ذات يوم، كان عليّ وحدي أن أخرج مع الكلب للتزلج، نصف ساعة على الأقل. إن كلاباً من نوع دوبرمان يحتاج إلى مكان للركض، وإلا فإنه يتذبذب. نصف ساعة كاملة بالنسبة لي في ذلك الوقت، كانت وقتاً طويلاً للغاية، كنت أقوم بالمشي، وأجلس فوق أريكة، وأقرأ مجلة ميكى ماوس صغيرة، خبائثها داخل قميصي. صار الكلب يكبر كل يوم، وغداً أكثر عدوانية، وكان بعض السلسلة، ويهز رأسه يميناً ويساراً، عندما كنت أريد سحبها من فمه، وكأنه يدافع عن غنيمة. ولم يعد ينصاع لأوامرِي عندما أصرخ وأنا في حالة من اليأس: اجلس! كان يقفز على مزمنجاً عندما أعطيه أمراً بالجلوس أو حين كنت أحاول إمساكه من سلسلة الرقبة. وددت لو كان لدى قدرة للسيطرة عليه، لكن ز McGrath أصبحت أعلى صوتاً وأكثر تهديداً، بالذات عندما كنت أطلب منه شيئاً أو عندما كنت أريد فرض رأيي، عدة مرات هاجمته كلاب أكبر

حجماً منه وقاموا بإصابته، فقط من خلال ذلك يمكنه أن يتعلم الدفاع عن نفسه، هذا أمر طبيعي، كنت تقول.

أما أنا فكنت أعتقد أن دم الكلاب يختلف تماماً عن دم الإنسان، فلونه داكن ويشبه لون القهوة، لكنها تحس نفس الآلام. هل تحس الكلاب بالألم؟ بالتأكيد، قلت أنت، ولكنها ليست بشرا بل حيوانات. لقد تعلم هارو الدفاع عن نفسه، بعد أن كان يرقد مستسلماً على ظهره، بل صار يعض في خواصرو رقاب الكلاب الذكور الأضخم حجماً، وسرعان ما أصبح معروفاً على نطاق واسع بأنه الكلب الذي يهابه الجميع. لقد كان يهزم كل الكلاب التي كانت تقاومه، إما أن يجبرها على الهرب وإما أن يطرحها أرضاً، ويلقي بنفسه فوقها مزاجراً أو مكشراً عن أننيابه. كل أصحاب الكلاب الأخرى كانوا يتذنبونه، فقط من حين لآخر كانت تحدث واقعة مع كلب من فصيلة الراعي الألماني أو من فصيلة الكلاب الشرسة روت فيلر، كان أبي يصبح عندئذ، فقط لا تتدخل، فإن لديها قوانينها الخاصة، فليس حتماً أن يصل الأمر لمعركة بينها. إن هارو كلب يحب السيطرة، وعندما يحترم خصمه ذلك فلن يوجد أي عراك.

وقفت أنا خلف ظهرك في حالة ترقب وخوف بنبضات قلب تدق مسموعة وصفير في الأذن. صحت أنت، لم يتقرر أي شيء بعد، بينما ظل الكلبان يحومان حول بعضهما بسيقان مستقيمة وبذيل مرفوعة، حينها قلت لصاحب الكلب: هل ترى أن كلبك قد خضع واستسلم، لا تقلق فلن يحدث شيء. لكن وفي هذه اللحظة، اشتباك الكلبان بأسنانهما، صرخ الأب، فقط لا تتدخل، وعلا صوت الزمرة والعواء، وعلى نحو مفاجئ أصبحت المعركة

بينهما دموية. قام هارو بعض رقبة كلب الراعي الألماني الضخم، الذي سقط على الأرض، وتدخلت أنت وظاللت تضرب هارو بمقود الكلب المصنوع من الجلد على فرائه ذي الشعر القصير، ضربات قوية، كان صوتها عالياً وكأنها طلقات مسدس. كل هذا لم يغير من الموقف شيئاً، صرخ صاحب الكلب، إنه سيقتل كلبي، إنه وحش!

وبيدأت أنت وصاحب الكلب في ضرب هارو بأقدامكما في خاصرته، لكن هارو لم يترك الكلب الآخر إلا حين أمسكت أنت بساقيه الخلفيتين وقمت بشتيهما ضد بعضهما البعض، حتى اضطرر من الألم إلى فتح فكيه وترك الكلب المتاؤه. صحت أنت مرة أخرى: سار الأمر على ما يرام. وأنت تجرّ هارو الملطخ بالدم قلت لصاحب الكلب حينها، كما أرى فإن إصابة كلبك ليست مهددة لحياته. كانت فاتورة الطبيب البيطري عالية، ولكن لحسن الحظ كان لدينا تأمين صحي على الكلب، وعندما بدأ هارو في قتل القطط، اضطررنا بعد أن قتل قطتنا، لجلب قطة ثانية. كنت من ناحية غاضباً ومن ناحية أخرى فخوراً بذلك، وتقول إنه كلب حقيقي. بعدها بدأ هارو أيضاً في الهجوم على الناس، و كنت تقول إن الناس الذين هجم عليهم، هم المخطئون! فمن يُظهر الخوف فإنه يريد أن يقول للكلب: أنت يمكنك أن تفعل معي ما تشاء، فلن أدفع عن نفسي. عليك المشي بشكل عادي وطبيعي، وبخطوات ثابتة، ليست سريعة، وليس بطيئة، كما لو أن الكلب ليس موجوداً، عندها لا يهاجم الكلب أحداً. كنت تقول أخيراً إن الإنسان مت فوق على الحيوان، والحيوان يعرف هذا بغيريته. لقد كان هارو كلب حراسة ممتازاً، وكان يحصل على

مراكز متقدمة دائمًا في المسابقات، يكسب كل جائزة وكل كأس، ولم ينجح أحد في انتزاع أي شيء من فم هارو، يكفي أن تأمره بالجلوس: اجلس. كان في استطاعة هارو أن يمزق أي لص إربا إربا، يكفي الصياح: بكلمة أمسك، كنت تقول أنا لا أنسح أي شخص بالاقتراب من منزلنا ليلاً، إن أسرتي محمية، و كنت تتباهى بذلك. عندما يخرج ابني مع هارو للتزلج، فليس هناك ما يدعو للقلق، فكل مجرم أو خاطف يستطيع هارو تمزيقه في الحال، وأنا بالفعل لم أعد أخاف من المجرمين أو الخاطفين، إنما كنت أخاف من هارو، ومن زمرة مجنته، ومن مواجهاته مع الكلاب الأخرى، ومن مواجهاته مع الناس الآخرين.

هل تشعر بالراحة يا أبي؟ هل تؤمل حواف حقيبة الظهر في فخذيك؟ في ذات الوقت كان يحاول الابن المعاك أن يرفع نفسه عالياً إلى حافة السرير، قبض على غطاء السرير الناعم، وشدّه من فوق جسد الأم فكشف عن ساقيهما البيضاوين وركبتيها، وترك الغطاء ليسقط من يده وهو في حالة من الفزع، وقام بمسك سنادات جوانب الكرسي المتحرك، ليجذب نفسه عالياً، وضغط ساقيه في اتجاه السرير، وحاول بذراع واحدة مثل لاعب جمباز المتوازي أن يرفع نفسه عالياً ومسنوداً على الكرسي المتحرك، والذي انزلق إلى الجانب رغم فرامله المشدودة، وأحدثت عجلاته الفارغة تقريراً من الهواء صريراً وقطقة، وسقط الابن بطوله فوق السرير على جسد الأم.

أحس بأنفاسها الدافئة، وبجسدها، وسمع صوت خشخشة في حلقتها مثل الشخير وكأنها حشرجة الموت. رأسه فوق رأسها، خده فوق خد الأم، مثل طفل صغير واللعاب يسيل من

فمه. قال في نفسه، فلتبق راقداً للحظة ولا تتحرك، ولتفصل في الظلام فوق جسد الأم وتفرق في سواد الأبدية، لكنه نهض ثانية وتحرك ببطء شديد في اتجاه حافة السرير، حتى تمكن من الانزلاق على الأرض مرة أخرى. كان البلاط بارداً على جسده الساخن، عندما تمدد فوق الأرض وظهر العرق فوق جبينه وتقطّر في عينيه، بينما كان يلهث. حاول بكل قوته رفع جسده عالياً، وأسند يداً على الكرسي المتحرك والأخرى على حافة السرير، دون أن يفقد توازنه، وبحذر وببطء ضغط بذراعيه واستطاع الوقوف على أصابع قدميه، هذا جزء من المرض، هكذا قال طبيب العظام منذ أعوام، وأخيراً تمكن من الجلوس على الكرسي.

عليه أن ينادي طبيباً، يجب إحضار طبيب للأم. تحرك بكرسيه إلى النافذة، انحنى ببطء، ومدّ ذراعه وقام بتحريك يده فوق مقبض النافذة، وتمكن من الإمساك به. ففتح النافذة وخرج صوته في الليل منادياً بخجل: مرحباً! ومرة أخرى بصوت أعلى: النجدة. وفي النهاية صرخ بأعلى صوت: النجدة! لم يسمعه أحد ولم يرد أحد. من بعيد سمع ضجيج ماكينة حصاد، يجب عليه الخروج إلى الشارع، يجب عليه المرور خلال ممشى الحديقة، وأن يتغلب على ذلك دون مساعدة خارجية. إنه لم يفعل ذلك أبداً في حياته حتى الآن، عليه أن يخرج من الباب عبر الدرج. إحدى يديه ممسكة بالسور المعدني والأخرى متکئة على عصا. عليه النجاح في ذلك، والنزول إلى مقدمة الكراج، وهناك يحاول أن يجعل الآخرين يرونـه؛ أن يلوح بذراعيه، أن يصرخ، ربما يراه أحد ويجلب النجدة ويحضر طبيباً، أو الإسعاف.

ومرة أخرى حاول رفع بنطاله وإدخال قدمه في فتحة رجل البنطال، نجح في ذلك واستطاع الإمساك به، ورفعه حتى الركبة، والجلوس وإدخال مؤخرته فيه ورفعه حتى بطنها، ثم قام بتحريك كرسيه في اتجاه باب المنزل، أمسك عصاها ووضعها بالعرض فوق سنادات جوانب الكرسي المتحرك، كان عليه أن يتحرك بحرص، حتى لا تسقط عصاها فوق الأرض. قال: يجب عليّ أن أذهب الآن يا أمي، سوف أجلب النجدة، وكل شيء سيكون على ما يرام، لا تخافي. وألقى نظرة خجولة على جسد الأم نصف المكشوف، وسقط ضوء مصباح طاولة السرير على وجه الأم، وأضاء فمها المفتوح.

فأشاح بوجهه بعيداً حتى لا يرى ذلك، أُصيب بدوار وكان على وشك الانهيار. انحنى بصدره إلى الأمام محاولاً أن يدس المفتاح في القفل. عندما يكون المفتاح موضوعاً في قفل الباب، لا يتمكن اللصوص بسهولة من الدخول إلى المسكن. كانت تقول الأم دائماً، عندما يكون المفتاح موضوعاً في قفل الباب، لا يمكن أيضاً لفاتحة الأقفال أن تولج في ثقب القفل، لا تنس ذلك، لقد تذكر كلمات الأم بدقة. لكن كان عليه الآن أن يلفّ المفتاح في الباب بيده، ويمسك مقبض الباب باليد الأخرى في نفس الوقت، وأن يجذبه نحوه حتى تدور الإسطوانة في القفل. كان محظوظاً وفتح الباب، والآن عليه أن يرجع قليلاً بالكرسي إلى الخلف، وأن يدفع الباب ويعود للتحرك بالكرسي إلى العتبة. في الخارج كان الطقس دافئاً، والهواء لم يصبح بارداً جداً.

إنه لن يصاب بنزلة برد، حتى لو كانت الثياب ملتصقة بجسمه، حتى لو كانت الأم تقول له دائماً كن حذراً ولا تتعرض لتيار هواء

وأنت مبلل بالعرق، حتى لا تمرض. لم يسبق له أبداً في عمره الذي يبلغ الأربعين عاماً أن خرج من باب المنزل وحده دون مساعدة. الآن كان عليه أن يفعل ذلك، فلا يمكنه أن يترك الأم وحدها هكذا، إنها في حاجة إلى العون، ربما كانت كل دقيقة ذات قيمة كبيرة. فكر لبرهة قصيرة كيف يمكنه التصرف على أفضل وجه؟ كان عليه أن يسند نفسه على الكرسي المتحرك، وأن يقبض باليد الأخرى على الباب بقوة، وأن ينتبه حتى لا يفقد توازنه مرة أخرى، فعليه أن يتحرك بالكرسي قريباً من الباب، وأن يشدّ مكابحه حتى يستند الباب إلى الحائط، غير أنه في الوقت الذي رفع نفسه من الكرسي المتحرك عالياً، كان الثقل الموزن صغيراً للغاية، فكان عليه ألا يجذب الباب ناحيته، وأن يبقى في وضع عمودي، وأن يفعل كل شيء من خلال قوة ذراعيه ويديه، عليه ألا يشد وإنما يضغط فقط، يسند كوعاً على مقبض الباب والآخر على مقبض ذراع الكرسي المتحرك. بدأت عضلاته ترتجف من الإجهاد، هذا الارتجاف الملعون، إنه يعرفه، كان يحسّ به أحياناً في ساقيه عندما يحملهما أكثر من طاقتهم، كان يأمل ألا تتحول هذه الرجفة إلى انقباض في عضلاته، لكنه استطاع الوقوف على قدميه وهو يتربّع، وأمسك العصا بيده اليسرى واتكأ عليها.

أخي العزيز: كنت تلقي ذراعيك في الهواء وتصيح: الريح، الريح، عندما كنت تجلس في الحديقة، كانت الطاولة وكرسي الأطفال هما عالمك. أبداً، كم مرة ينبغي أن أقول لكم ذلك، كانت الأم تقول، يجب ألا يضعه أحد منكم على كرسي قبل أن يكون هناك كرسي آخر خلفه كي لا يسقط، فمن الممكن أن يقع على مؤخرة رأسه، وهو أمر خطير في مثل حالي. مثل هؤلاء الأطفال يجب

ألا يتعرضوا لأشعة الشمس أيضاً. من فضلكم، لو لم تصدقوني، فعليكم سؤال الأطباء في المستشفى وسوف يؤكدون ذلك لكم. في الواقع عندما يسأل أحد عنك فهو يسأل تلقائياً عن صحتك. كنت أعتبر الوجوه القلقة للسائلين هجوماً شخصياً علىّ، لقد تعلمت أن أتفادى السؤال عن مستقبلي الدراسي، لأنك كنت بمثابة الطابور الخامس بالنسبة لي، وكان مجرد السؤال عنك دائماً يجعلني غير قادر على الدفاع عن نفسي. لم تترك لحظة واحدة بمفردك. هل أصابكم الجنون، طفل مثل هذا لا يمكن تركه وحيداً، فمن الممكن أن تقع حادثة والصغير كما تعلمون عاجز. كل شيء كان يتم إحضاره لك، وكانت رغباتك التي يرونها في عينيك يتم تحقيقها على الفور، يجب ألا يفتقد شيئاً، ينبغي أن يحصل على كل شيء مثل الأطفال الآخرين.

أما كيف تريده ذلك، فلم نسألك هذا السؤال أبداً.

بصعوبة كنت تحافظ على توازنك عندما كنت تركب الدراجة ذات العجلات الثلاث، وقد قمت أنا بربط قدميك على الدواسات بأحزمة قديمة للتزلق على الجليد. ماذا يحدث لو أنه سقط؟! كانت الأم تقولها عندما كان يتم دفعك من الخلف وأنت فوق الدراجة، كنت تتجه في السير والاندفاع إلى الأمام، بينما كنت في نفس الوقت على وشك الانزلاق من مقعدك دائماً من الجانب. سوف يستطيع كل شيء مع الوقت، عليكم ألا تتسرعوا. هناك أطفال آخرون يمكنهم ركوب الدراجة ذات العجلات الثلاث ولكنهم ليسوا أكثر سعادة لهذا السبب.

دعا في حاله، حينها يدرك فقط ماذا ينقصه، لكنك كنت تبدو سعيداً حين كنت تجلس إلى الطاولة الصغيرة في الحديقة

أو عندما كنت تطل من النافذة. فقط لا تشد الباب ناحيتك، قال ابن الأصغر في نفسه. يجب عليه أن يحافظ على توازنه، وأن يحترس حتى لا يدور حول نفسه مرة أخرى، كان يعرف ذلك، لأن كعبيه لا يلمسان الأرض، ولأنه يمشي على أصابع قدميه، كما قال طبيب العظام ذات يوم. رغم ذلك كان عليه أن يترك مقبض الباب للحظة، وهو محافظ على توازنه، وأن يمد يده إلى الأمام ويحاول الإمساك بالسور الحديدي. بدا لنفسه وكأنه رائد فضاء في الفضاء الخارجي وقد تحتم عليه ترك محطة الفضائية. لو لم يتمكن من الإمساك بالسور الحديدي فسوف يسقط من فوق سالم الدرج وتهشم عظامه، لكن عليه ألا يفكر في ذلك الآن. استدار مرة أخرى ورأى ساقي الأم على السرير، بينما قدماها العاريتان مرفوعتان في الهواء.. ترك يده، فأحس بالهواء في منخاريه وسمع نفسه ينفخ مثل حسان. انتابه الفزع وكان يود لو يهرب من الموقف، لكنه لم يستطع الحركة، أصابه الدوار وكان على وشك السقوط لكنه نجح في الإمساك بالسور الخشبي، وتشبث به بكل قوته.

مرة أخرى سمع صوت ضجيج ماكينة الحصاد. دق قلبه بقوة، وانسابت قطرات العرق إلى أسفل جسده. إنك تعرق مثل أبيك! كانت الأم تصيح دائماً، والنساء لا يرغبن في الرجال الذين تفوح منهم رائحة العرق، عليك أن تتذكر أن العرق فيه شيء مبتذل، وعليك أن تتجنب المواقف التي يمكن فيها أن تبتل بالعرق.

كان ثالتر يسير بشكل جيد، وتغلب على الارتفاع الخفييف دون صعوبات، ولم يلهمث! هل مازلت تتذكر يا أبي؟ كان الكلب يطيع كل كلمة منك، وعندما كان يمتنع عن تنفيذ أمر لك، كنت

تشده من الجنب بالسلسلة شدة قوية، كنت أخشى دائمًا أن تنزع رأسه عن جسده. لساعات طويلة كنت تضع آثاراً للكلب هارو، في الحقول المقصوصة، والمروج، وفي الغابات والأودية الضيقة العميقية، في خطوط مستقيمة، هنا وهناك، في تفرع الطرق يميناً ويساراً، كنت تقوم بعمل خداع له، وترمي أشياء وعليه أن يتعقبها ويبحث عنها ويعيدها إليك ثانية. شيء لا يمكن تصديقه تقريباً ما كان ينجزه هذا الحيوان!

نادرًا ما فشل في تحقيق الهدف، من حين لآخر وعندما كانت توجد في الطريق آثار حيوانات برية، أو كان يرى فجأة ظبياً أو يشم رائحته، عندها لم يعد من الممكن السيطرة عليه، فكان ينطلق مندفعاً خلف الحيوانات وهو ينبع، وفي كثير من المرات كان يقوم بتمزيق الظباء. لو أستطيع الإمساك به ذات يوم، فسوف أقوم بإطلاق الرصاص عليه وقتله دون سابق إنذار، كان يصبح حارس الغابة في غضب. أنا لا أنسنك بذلك! كنت تقوم بالصغير من خلال أصابعك، لكن عندما يكون الكلب بعيداً، كنت تحس بذوبان نفوذك، ويصبح عندها صفيرك دون تأثير. فيما بعد وعندما عاد هارو وهو يلهث ورغوة اللعاب حول فمه بينما كانت خاصرته ترتعش، أخذته من رباط الرقبة وقمت بمعاقبته بضريات قاسية، وفي النهاية كانت هناك تمارين لعقابه أدّها وهو مغلول بالسلسلة.

ذات مرة رأيت هارو وقد انتابتة حالة تمرد عليك، كان مزمجاً وحاول عض يدك، لكنك أمسكت به من رباط الرقبة، وأنت في حالة غضب شديد، وحالة انتصار، وكأنك كنت تتمنى مثل هذه اللحظة منذ زمن طويل، فقد قمت برفعه وقدفه في الهواء حتى

سقط على الأرض. اعتقدت أنا للحظة أن الكلب قد مات، لكنه بدأ في اللهاث ونهض مرة أخرى واتجه إليك وبدأ في لعق يدك، فالكلاب تحدّر من سلالة الذئاب، كررت لي ذلك مرة أخرى، إما تكون أنت القائد وإما أن يكون هو، بإمكانك أنت وحدك أن تقرر ذلك باعتبارك مالكا له. وخضع الكلب لك أكثر من ذي قبل؛ لكن مطاردته للظباء ظلت مشكلة لم تُحل.

للحارو ظبيا وهو على بعد ثلاثين أو أربعين متراً منك، عندها لم يكن في الإمكان كبح جماحه، لأن غريزة الصيد كانت قد تغلبت عليه. رأيتُ كيف أخرجك الغضب عن طورك حينها يا أبي؛ لقد دفعت بعقوباتك إلى آخر مدى، لم تستطع أن تقتل الكلب، ربما كنت بهذا الحادث قد وصلت إلى نقطة اللاعودة؟ ربما كان يتحتم عليك أن تجد له بديلاً آخر؟ ربما تخير سلالة أخرى من الكلاب تكون أكثر ملاءمة؟ هل ارتكبت أخطاء عند تربيته؟ غير أن فكرة خطرت على ذهنك فجأة: لماذا لا تهرب الأبقار من المراعى؟ إن السور الكهربى يمنعها، ذلك السلك الرفيع يكفي، مرة واحدة فقط تلمس الأبقار السلك وتصيبها الصدمة، بعدها يصبح كل شيء على ما يرام. وبدأت أنت في تطوير حاجز كهربى متحرك، واختفيت لعدة أسابيع في ورشتك داخل سرداد البيت. في البداية كان الجهاز كبيراً جداً، إنه يعوق حركة الحيوان. لقد أصبح أكثر ثقلًا بعدها. وأخيراً عثرت على الحل الأنique، كما سميته حينذاك؛ وصار الجهاز يعمل بشكل مثالى، كان صغيراً وخفيفاً ومن الممكن تثبيته في رقبة الكلب دون أية مشكلات. كان ذلك في بداية الخمسينيات، حيث لم تكن أجهزة التحكم عن بعد متوفرة للشراء في كل المتاجر بعد.

حتى مسافة ثلاثة متر كان الاستقبال في الجهاز ممكنا، ولمسة صغيرة كانت تسبب في صدمة كهربية مؤثرة. لقد حدق في عيني برهة قصيرة، كلا؛ إنك ما زلت أصغر من أن تصبح فأر تجارب. سأجريه في نفسي أولا. في البداية كنت تريد أن تربطه ببساطة تامة حول الرقبة، ثم قلت: أريد أن أعرف بالضبط كيف ي عمل، خطوة مقابل خطوة يجب أن يكون الاختبار، ثم حسمت الأمر بأن تحمله في يدك، وأصدرت إلى تعليمات دقيقة كان علىي أن أكررها بالترتيب الصحيح. لم أكن مستريحا تماما للأمر، لكنك أكدت لي أن شيئا لن يحدث، كانت الصعقة في الواقع قوية، لكنها لم تكن على أي حال مهددة للحياة.

كلا، أنا الذي سوف أتلقي الصدمة الكهربية، وليس أنت، تمسك، فقط معك جهاز الإرسال، إنه لأمر مضحك بالفعل، لا تكن أبلها! إن الجهاز في يدك يولد النبضات فحسب، أتفهم؟ النبضات فقط، هي أيضا كهربية بالفعل، لكن ليس لها أي تأثير على الإطلاق. لا تجعلني أجن، صحت أنت يائسا، لن تشعر مطلقا بأي شيء، إنني أضمن لك ذلك، لأن الصدمة الكهربية سوف تثار عندي، كلا، لن أربطها حول رقبتي، يمكنني أيضا تجربتها على يدي، كي أرى إذا ما كان اندفاع التيار الكهربى كافيا، عليك فقط أن تضغط للحظة قصيرة جدا على هذا الزر الأحمر، عليك أن تلمسه فقط، ولكن عندما أصل أنا إلى هناك على الريوة العالية بجوار شجرة التوب.. لقد تحركت أنت بخطوات سريعة بعيدا عنى، وأمسكت أنا بجهاز الإرسال بعيدا عن جسми قدر الإمكان، أمسكته بيدي الممدودة، محاذرا كما لو كان قنبلة.

كان حجمك يزداد ضآلة، وثقل جهاز الإرسال كان يضغط ذراعي إلى الأسفل، وأنه كان علىّ أن أحمل الجهاز باليد الأخرى، صرت أقوم بتبديل اليد. انتابتني حالة من الاضطراب على الفور. ما زال هناك عشرون متراً وتصل إلى المكان المحدد، حيث توجد شجرة التقوّب، تمنيت أنك قصدت هذه الشجرة، وليس تلك الأبعد ناحية اليمين، كلا، كلا، لقد كان صحيحاً؛ فيدأي كانتا ترتعشان بسبب الانفعال والإجهاد. وعلى مقرية كان الجهاز على وشك الانزلاق والسقوط فوق العشب المبلل. والآن أغمض عيني وأضغط سريعاً على الزر الأحمر، لقد قفزت أنت في الهواء، الزر صار لا يعمل، وسقطت أنت على الأرض وظللت راقداً للحظة، من المحتمل الآن أنني قتلت أبي، جال في خاطري ذلك، لكنك نهضت ثانية ولوحت بذراعيك في الهواء: تعال هنا، سمعتك من بعيد وأنت تصرخ، جريت نحوك، هل جنت؟! لا تفهم ماذا تعني: «اضغط قصيراً مرة واحدة»؟!

لقد تعلق الزر: صحت في المقابل من بعيد، غير أن الأواني قد فات بالفعل. ماذا؟! صحت أنت وانحنىت كي تلتقط الجهاز، لقد تحولت «ماذا» إلى صرخ وإلى لعنات غاضبة، ومرة أخرى قفزت أنت في الهواء وتراجعت ساقطاً على الأرض، هل أنت في الحقيقة معتوه أم أنك تريدين أن تقتلني؟! فقط عليك أن تضغط ضغطة قصيرة. لكن الزر تعطل، أجبت أنا خائفاً، وليس في استطاعتي عمل شيء. صحت أنت قائلاً: آها! يجب الآن حل هذه المعضلة، وسيعمل الجهاز بشكل مثالٍ. كنت تلهث بعض الشيء في ذلك الوقت، لكنك كنت سعيداً. قلت: أنا مقتعم أنت بهذا الجهاز سوف أُعيد الكلب إلى صوابه. وهذا بالفعل

ما حدث، لمسة واحدة قصيرة، وقفز هارو في الهواء ثم سقط على ساقيه إلى الخلف وظل ينبع ثم نهض مستعطفاً. بعد ذلك صار يطيعك طاعة عمياً، وكأنك كنت تعطي الأوامر مباشرة إلى مخه!

لقد استوعب هارو الدرس، فكان عندما يرى ظبياً من بعيد، يطوي ذيله إلى الوراء فوراً وهو يئن. البعض في نادي الكلاب كان مت蛔ساً، والبعض الآخر كان يرى في هذا التصرف تعذيباً للحيوانات، وكان ردّك: إن هذا هراء، فالجهاز آدمي تماماً، أفضل بكثير من الضرب، فليس جروح هناك على الأقل، وأنا مقتنع أن الجهاز سيحقق نجاحاً كبيراً، هل ما زلت تتذكر يا أبي؟ لقد قمت بتسجيل اختراعك، وكان حجم مبيعاته كبيراً، ما زلت أتذكرة ذلك بالضبط، وكنت دائماً تقوم بتطويره، ووصلت به إلى أحدث مستوى من الناحية الفنية، والمسافة التي كان فيها الجهاز فعالاً كانت دائماً تكبر، صارت نصف كيلو متر، وبعدها صارت نحو كيلو متر كامل!

في ذلك الوقت قمت بتأسيس شركة، وفتح مكتب هندسي خاص بك، وقد أعددت بناء سرداد المنزل، وتم تجهيز ورشة، ثم قمت بتعلية المنزل وفتح مكاتب به..

دائماً كان رجال يدخلون ويخرجون من منزلنا، واستطعت بيع الجهاز إلى الأرجنتين وبارجواي والبرازيل، حيث يتم استخدامه لتدريب الكلاب، وبخاصة في المزارع الكبيرة هناك. أيضاً إلى دول أوروبا الشرقية كان تصديره سهلاً، كنت دائماً تقول: لقد قمت بتطوير هذا الجهاز للكلاب، وعندما يقومون باستعماله للسجناء، فهذا ليس من شأنني، ولا يخصني الأمر.

كيف حالك الآن يا أبي؟ ألا تريد الكلام بعد؟ ألا تستطيع ذلك؟ لو شعرت باستياء، فعليك إعطائي إشارة بذلك، كأن تلمس رأسي بيديك أو تضرب بقدمك خفيفاً في جنبي. هل تحس بالجوع أو بالعطش؟ أو ت يريد قضاء الحاجة على وجه السرعة؟ من فضلك دعني أعرف ذلك في وقت مبكر؛ سوف نستريح لفترة قصيرة فيما بعد وأنت في وضعك العالى متارجاً حاً تشعر بالملتهة.

أليس كذلك؟ يا لها من ليلة، رائحة الصمغ تفوح من أشجار التوب المقطوعة، شيء رائع. لمدة ست سنوات كان هارو مطيناً للغاية، وقد فاز خمس مرات في مسابقات إقليمية وقومية ودولية بمركز ممتاز. مرة واحدة فقط حصل على جيد جداً، عندها قام هارو ببعضُ خبير الاختبارات في ساقه، بعد ذلك بدأ هارو فجأة في مهاجمة الأطفال، فعندما هجم على ابن الجيران ذي الأعوام الستة وأصابه في ساقه، كان الأمر بالنسبة لك واضحاً: إنه لم يعد طبيعياً، إن الكلب أصبح مريضاً وإنما فإنه لن يقوم بمهاجمة الأطفال.

سأطلق عليه النار وأقتله، عليك الذهاب إلى الطبيب البيطري، فلديه وسائل أخرى، قالت الأم. لا، إن الرجل يقتل كلبه بنفسه، لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك في الحديقة، والجيران سوف يسمعون طلقة الرصاص! كنت ترد قائلاً، لا توجد أي مشكلة. ثم قمت بتركيب كاتم الصوت بحركات مدرية فوق مسدسك الخاص ماركة ثالتر ب. ب. ك، وأحضرت قطعة سجق من الثلاجة، بعد ذلك قمت بالصغير من خلال أصابعك مرة واحدة، وقلت لي: اذهب إلى الناحية الأخرى من المنزل، فلا ينبغي أن ترى شيئاً،

وعندما عدت كان وجهك شاحباً، وقلت انتهى الأمر، نستطيع الآن إحضار جامع الحيوانات الميتة.

أخي العزيز: كل شيء كنت تحاكيه في عالمك الصغير. بعد نزهة على البحيرة، أحضروا لك حوضاً من البلاستيك مليئاً بالماء فوق الطاولة، وكانت تضرب وتلعب في الماء. صاحت الأم بحماس: انظروا إليه، كيف يتمتع بمزاج طيب! قال الأب متذمراً: أنا لا يمكنني فعل شيء، وهذا المشهد يثير الكآبة في نفسي. هذا هراء، قالت الأم، ألا ترون وجهه السعيد؟! من المعاقين بالذات يمكن أن يتعلم الأصحاء شيئاً!

أعتقد أنك كنت تشعر في ذلك الوقت بالرضا، حتى إنك ربما كنت سعيداً في عالمك. بحركات طائشة كانت تضرب على الماء في الحوض. ينبغي عدم تركه ولو ثانية واحدة بعيداً عن أعيننا، ولو ثانية واحدة، حتى لو كان عمق الماء عشرة سنتيمترات، يجب ألا يخاف، فهذا من شأنه أن يكون ضاراً. رغم ذلك فقد تدربنا سوياً على الغطس. بعد عدة محاولات فاشلة كنت تستطيع إغلاق الفم في اللحظة المناسبة. ذات مرة كنت تنفس عن طريق الأنف، ولفت تأوهك انتباه الأم، قلت أنا: ذبابة خيل كبيرة أفزعته. قالت الأم: إن رأسه مبللة، والآن يكفي هذا. وجلست أنت في حالة دفء، محمياً من كل نفحة هواء، ملفوفاً ومغطى بفوطة استحمام، في الشمس، بمنديل قماش معقود من كل الزوايا.

نعم، يا أبي العزيز، من حسن الحظ أنني لم أكن كلبك، من حسن الحظ أنني كنت ابنك، ابنك الذي كان يحبك.. من تحبه أكثر، كان رفاقي في المدرسة يسألون: أمك أم أباك؟ أنا أحبهما

على حد سواء. نعم، لم تكن أبا غير مبال. ذات شتاء ربما كان عمري حينئذ أربع سنوات أو خمساً، وكان الثلج يتتساقط دون توقف، وكان ارتفاع هذه الفخامة البيضاء يصل للركبة، ونحن الأطفال كنا نحاول بناء بيت من الثلج، وبالفعل قمنا بعمل كومة كبيرة من الثلج بمعاولنا الصغيرة، وعندما أردنا عمل فجوة بها إذا بها تنهر، وأخيراً استطعنا عمل تجويف، لكن مساحته كانت صغيرة، بحيث لا يسمح إلا بوجود طفل واحد فقط وهو منكمش، وعندما عدت أنت من العمل إلى المنزل، وعدتنا بأن تبني لنا قلعة حقيقة في يوم السبت التالي، إذا ما استمر بقاء الثلج، ومن النافذة في الصباح نظرت وكنت قلقاً، لقد تساقطت الثلوج مرة أخرى أثناء الليل.

فوراً عقب الإفطار بدأ العمل، وفي تلك الأثناء تجمع عدد من الأطفال الأكبر سننا، وقلت لنا سوف نبني وفقاً لطريقة شعوب الأسكيمو، فهم يقومون بمعاولهم بعمل طوب من الثلج ويضعونه طبقة فوق أخرى، سنبني بنفس الأسلوب، لكننا لن نقوم ببناء أكواخ الأسكيمو والتي هي على شكل قبة، بل سوف نشيد قلعة حقيقة من الثلج ذات بنايات مختلفة. بعض الأطفال قاموا بتجهيز الطوب الثلجي، وآخرون قاموا برصّها طبقات فوق بعض وفقاً لتعليماتك. كنت أنت المهندس المعماري وكبير العمال والمساعد في نفس الوقت. في البداية كان هناك غرفة أو غرفتان، ثم توالت غرف أخرى. ولفتره وجيزه جداً تراجعت درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر، وبعض الأطفال أحضروا دلاء مليئة بالماء الساخن كي نتمكن من تجميد القلعة، لقد كنا نعمل بهذا المبنى العملاق وكأننا نحاتون.

وفي النهاية يا أبي العزيز، عندما قمت بتشييد برجين آخرين بسلام منحوتة من الثلج يمكن الصعود عليها بالفعل، وعندما انتهينا؛ وكأول الصاعد़ين على هذا الدرج؛ فقد تمكنت من نحت علم في جدار القلعة، عندئذ أيقنت أن حلمي قد تحول إلى حقيقة، وجلسنا في المساء منهكين حقيقة، وفي المساء؛ في الحجرات المضاءة بالشمعة جلسنا نتناول عشاءنا، وقد تملكتنا حالة من النشوة؛ حتى إن بعض الأطفال، كانوا يريدون قضاء الليل في القلعة. أنا لم أعد أتذكر ما إذا كنت قد سمحت لهم بذلك، أم لا؟.. لقد نجحت في ذلك الوقت يا أبي العزيز في أن تسحرني، تسحرني على أرض الواقع! هل ترى يا أبي أن الغابة ليست مظلمة تماماً، فالطريق في الليل أيضاً يمتد بين الأشجار وكأنه شريط مضيء. نحن نسير في الطريق الصحيح، فالآن صار الوادي الضيق خلفنا، وبعدها توجد بعض الحقول، وأخر صعود لنا سيكون بعد ذلك. وقريباً جداً منا، كان الابن الأصغر المعاو قد سقط على الأرض، فوق آخر درجة من السلالم الذي يقود إلى المنزل، لقد فقد توازنه ودار حول نفسه ووقع على الأرض. وكان كوعه وفخذه الأيمن يؤلمانه، لكن لم تكن هناك أي كسور.

والآن كان عليه أن يمد يده ويمسّك بالعصا، التي كانت تبعد عنه بعض الشيء. لقد ضغطت عليها بذراعه في اتجاه جسده، وبقدميه تجاه إحدى درجات السلالم حتى لا تنزلق إلى الجانب عندما يرفع نفسه عالياً وممسكاً بكلتا يديه بالسور. كانت ركبتهما مضفوطةتين من جراء توتر عضلاته، وكاد يفقد توازنه مرة أخرى، لكنه تمكّن من النهوض، بعد ذلك كان عليه أن يسير في

ممشى الحديقة إلى سلالم الدرج التالية. إنه يمشي بطريقته الخاصة، وساقاه منفرجتان ومثيتان بعض الشيء، ويجر قدميه على الأرض، بينما كان حذاؤه في الجانب والمقدمة مهترئاً.

من حين لآخر كان يبقى عالقاً في أحد أجزاء البلاط المرتفعة بعض الشيء، لكنه تقدم إلى الأمام بشكل جيد واقترب من الدرج. كان يشعر طوال الوقت بقلق غريب كلما ابتعد عن البيت، كان هذا الخوف يُسرع من دقات قلبه. يحس أنه يمشي فوق أرض مبلولة طرية، والآن لم يعد يخشع شيئاً، إنه يريد فقط إحضار النجدة لأمه، وحاول وضع قدمه اليسرى فوق درجة السلم التالية، ولكن حذاءه انزلق وبدأت ساقاه في الاهتزاز من الإجهاد، وكان عليه أن يتذكر لحظة، أن يستريح، وإنما لن يستطيع السيطرة على عضلاته، وسوف يفشل الجسد فجأة في إكمال مهمته.

صرخ: النجدة! لكن صوته لم يصل بعيداً، فقد بح رنينه بعض الشيء من جراء الإنهاك، تحنح وصرخ من جديد، لكن هذه المرة بصوت أقل حدة. وبحرص حاول مرة أخرى أن يضع القدم اليسرى فوق درجة السلم التالية للهبوط، وأن يجر القدم اليمنى دون أن يفقد وقوفه، ولكي يستطيع فعل ذلك كان عليه أن يقبض وعلى مسافة صحيحة بكلتا يديه وبقوة على السور. لقد نجح في النزول درجة من السلم.

هل تسمع؟ قال ثالتر لأبيه، إنها بومة صغيرة، نسمع صياحها رغم ضوضاء ماكينات الحصاد، لماذا لم تعد في الحقيقة تتكلم يا أبي؟ لقد كان ذلك يحدث في الماضي أيضاً، عندما تكون لسبب ما مستاب، كنت لا تتحدث معي لأيام وربما لأسابيع طويلة. كان يجب عليّ أن أقدم لك اعتذاري رسميًا، كنت غالباً ماأشعر

بالذل في ذلك الوقت. طالما كنت صغيرا، لم أطق السكوت، وكان عليّ أن أخضع، لأنني كنت في حاجة للاتصال بك.

لكن ويهمرر الزمن بدأت تحمل السكوت، فقد تدربت عليه، وكانت في كل مرة أحقر رقما قياسيا قبل أن أستسلم وأخضع لك. في الوقت الذي كنت به في المدرسة الثانوية، قاسيت لأسابيع وشهور طويلة، وجعلت من هذا الشأن رياضة خاصة بي، وخلقت حيزا شاسعا لنفسي، ولم أعد أحس بأني مذنب. في بعض الأحيان كنت أقوم بإبلاغ الأم خاصة تقديرات اختبارات الرديئة بصوت عال، حتى تستطيع أنت أيضا أن تسمعها، وكانت أحس بالانتصار في كل مرة، عندما لا تتمكن من السيطرة على غضبك، كنت تصرخ: هل أنت في الحقيقة غبي أم أنك تتصنع ذلك فحسب؟ وكنت أجيب: كلاهما، إن هذا في الواقع هو أسوأ شيء.

لكن منذ متى نتحدث معا ثانية؟ على حد علمي أنا لم اعتذر لك بعد! لكن الحساب بيننا جاء لاحقا. كان الوضع يتآزم دائما، وصار غضبى السريع مساوا لغضبك، وأصبحت عرضة للجروح مثلث تماما، في نفس الوقت الذي نمت فيه قواي الجسمانية، لكنني كنت أريد أن أكون مختلفا عنك بالمرة. مهما يكن فلم أرد أن أكون عقلانيا، أو مهندسا باردا، إنما كنت أريد أن أكون فنانا، وقبل كل شيء عاشقا حنونا لا يشبع. لكنني في الواقع كنت فاشلا في المدرسة وشخصا أحمق. وذات مساء حدث ذلك؛ كنا نتحدث عن أخي، كنت تريد إيداعه في مدرسة داخلية، وتقول إن ذلك بالنسبة له هو الأفضل كي يمكنه الاستقلال عن الأم، والاعتماد على نفسه، لكنني كنت أعارض ذلك. من يا ترى كان على حق؟

اليوم أعتقد أنني لم أكن مقتنعاً بما حدث، فقد حاولت في ذلك الوقت التأثير على رأيك وتغييره، وحاولت إقناعك بقوة، لكنك كنت تقول: لا نقاش، وكنت تُنهي كل حديث بيننا، أنا الذي يقرر، فأنا المسؤول التربوي وليس أنت، لأنني في النهاية أنا الأب.

لم تعطني إجابة، كنت في ذلك الوقت في الثانية والعشرين من عمري، وأنت في منتصف الخمسينات، وقد قبضت على جريدة «نوفا زيوترافتونج»، وأخذت تفاحة من طبق الفاكهة، وخرجت إلى الشارع مع الكلب، خليفة هارو. في هذا الوقت بدأ العد التنازلي، كنت أحس أن في داخلي قنبلة على وشك الانفجار، وقمت بملاحقتك في الشارع. اليوم لن أستسلم، اليوم سوف أجبرك على الكلام معي، إن معي الحق في الحصول على ردّ منك، أنا لا أريد أن يكون أخي إنساناً تعيساً، وأن يعيش في عذاب كل يوم في المدرسة الداخلية، وأن يعاني من التوازنات لا تُطاق حتى يرتدي المعطف، وأن يصبح مبللاً من العرق حتى يدخل في البطلان، وأن يربط الحزام حول وسطه. كلا، أنا لا أريد ذلك، ينبغي الاستمرار في معاملته كالأمير الصغير، أنا أتفق مع رأي الأم، وكنت تطوي الجريدة بطريقة تسمح لك بقراءتها وأنت تمشي، لقد قمت بقبض التفاحة بحماس، وأكملت سيرك دون الالتفات إلىّي، لكنني قمت بالجري خلفك وصحت: سوف أجبرك على الكلام معي، صدقني.

وشعرت حينها بخفقات قلبي القوية السريعة وصوتي الذي أصبح غليظاً من جراء الانفعال. لكنك لم تنطق بكلمة وقمت بطيءِ الجريدة من جديد كي تستطيع تكميلة قراءة المقال الذي بدأته، وسرت في طريقك غير مكتثر. أصاب الفزع امرأتين

من المارة فابتعدتا عن طريقنا، صرخت فيك، وقمت بتوبيخك، لكن كل ذلك كان دون جدوى، ولم يأت رد فعل من جانبك، وخشيتك فعلاً من الفشل، وكان على الاستسلام. وفكرت في طريقة جديدة، فقد كنت أعرف عنك أنك تصبح سريع الغضب لو قام شخص بلمسك أو دفعك بعض الشيء، وكانت تقول ذلك مراراً، حينها يكون رد فعلك قوياً، وكأن هذا الشيء يوجد داخلك بصورة غريزية أو بالفطرة. عندها قمت بدفعك خفيفاً في الكتف، فصار وجهك شاحباً، ورجعت بيديك اليمنى إلى الوراء استعداداً لتوجيه ضربة، وأخذت وضع الهجوم مثل ملاكم، وقامت بالتحديق في عيون صغيرة محتقنة بالدم! وقلت أنت: مرة أخرى سوف أقوم بضررك! وكنت أنا مستعداً وصحت: تستطيع فعل ذلك ولكنني سأرد! ظللنا لثوان معدودات يتحقق كل منا في الآخر. وتركت يديك لتعود إلى وضعها الطبيعي، ومتنفساً بصعوبة قمت بشيء جريدة «نوفا زويخرتسايتونج» بقوة وقد كنت تقبض عليها، وألقيت بالتفاحة بعيداً.. بعد ذلك لفترة زمنية طويلة كان كلّ ما يتتجنب الآخر، ولعدة أشهر لم يتحدث أحدنا مع الآخر. أما الآن يا أبي فقد أصبحت تحت سطوتى، أستطيع الآن تحطيمك فقد صرت عاجزاً، ولا أحتاج الكثير حتى أبْتُ في نفسك الخوف والفزع، وستنظر إلى عيون يملؤها الرجاء، أيها الكائن اليائس! إنك الآن تتململ فوق ظهري كدمية متحركة، بعد أن صرت بائساً. كنت تخشى طوال حياتك ذلك اليوم وتقول: لا ينبغي أبداً أن تفقد السيطرة على نفسك، إياك أن تصبح عاجزاً أو مغلوباً على أمرك، هل أقوم برميتك على الطريق السريع مثل كلب، تركته العائلة وذهبت لقضاء عطلة؟ أو ألقيك في صندوق القمامات مثل

طفل غير مرغوب فيه؟ هل أقوم بتخلصك من حياتك وطعنك بسکین الجیب الذي تحمله؟ أم أطلق عليك رصاصۃ الرحمة من مسدسک مارکة ثالتر ب. ب. لک؟ فکاتم الصوت سوف يجعل الدویّ غير مسموع، بعدها يمكنني دفعك دون أن يدری أحد. لا تخش شيئاً يا أبي العزيز، نحن نستمر في السير ولا شيء ولا أحد يستطيع أن يوقفنا. سنکمل سیرنا في اللیل، ونصل إلى الجبل، إلى بيت عطلة نهاية الأسبوع. هل تريد أن تقنعني بأنك كنت تكسب الكثير من المال في مجال الأدوات الكهربائية من خلال عقود قانونية؟ والكلمات التليفونية الكثيرة الفامضة؟ غالباً ما كنت أستيقظ في اللیل مذعوراً، وأيضاً في النهار كانت الاتصالات الهاتفية لا تقطع، وعندما كنت أرد كانت المکالمات تتقطع. ظنت الأم أن لديك عشيقة، وكنت ترد، هذا هراء، فليس لدى وقت مثل هذه الأمور.

لكن في الواقع كان هناك ما يحدث. بأي نوع من أنواع الأبحاث كنت تقوم في الحقيقة؟ وماذا كانت تحتوي هذه الصناديق المعدنية الملحومة التي كان يتم نقلها للمنزل في شاحنات مبردة؟ هذه الشاحنات كانت تحمل لوحات معدنية أجنبية، من بلغاريا ومن تشيكوسلوفاكيا ومراراً من بارجواي والأرجنتين. وماذا كان نوع هذه العقود؟ حتى وقت متأخر من اللیل كنت تعمل أنت وصديفك الطبيب، طبيب الأشعة، أنت لا يمكنك إنكار ذلك، وفي كثير من الأحيان كان يقضي اللیل في منزلنا، وكنا نتناول طعام الإفطار معاً، لم تكن الأم غير مبالیة عندما كان يغازلها. فسلوكه كان أكثر منك رقة! لقد كان هذا حقيقياً. فكان يشرب القهوة الباردة في فترات الراحة القصيرة، عندما كنتما تعودان

من المعامل، ولا يرميها في جوفه على مرتين، كما كنت تفعل، كان يمسك الفنجان بإصبعين من المقبض، ويمدح النكهة الرائعة للقهوة ويحتسيها بهدوء. رجل مهذب، كانت الأم تقول، وكانت معجبة به، وقامت بالانفصال عنه في وقت لاحق لهذا السبب. فذات مرة قمت بضبطهما معاً. كان ينبغي أن تطير إلى بوينس آيرس، ونسألت جواز سفرك في البيت، وقامت بمباغتها، وهما يرقصان رقصة فالس لفرانز ليهار فوق الأرضية الخشبية، وكانا يحضنان بعضهما .. موسيقى ليهار كنت تبغضها كثيراً.

لقد لكت صديقك في وجهه، عرفت ذلك لاحقاً من أمي، لم يدافع عن نفسه رغم نزيف أنفه، وقامت بطرده من المنزل. وانتهى الأمر بالنسبة لك بهذه النهاية، لقد كان يخاف منك كثيراً، ولذلك لم يستطع إقامة علاقة مع الأم. صديقك الطبيب مات ميتة غريبة فيما بعد، قيل إنه جادث في جبال الأنديز، لكن بقي الأمر غامضاً إذا ما كان قد مات مقتولاً. ما نوع التجارب التي كنت تقوم بها في القبو؟ كنت أسمع في بعض الأحيان صريراً أو ضجة، أم أن ذلك كان فقط مجرد تهيئات؟ هل كنت تقوم بإصلاح أجهزة الراديو الجديدة؟ أم كنت تعمل لتطوير ماكينات المطبخ؟ لكن لماذا كانت تفوح هناك رائحة نتنة لسمك ميت؟ لماذا كنت أجد سمندر الماء المعدّ في الأوعية الزجاجية؟ ألم يكن بعضها له رأسان؟ أم كان ذلك مجرد خدعة بصرية، ففي المياه العكرة لم أستطع النظر بصورة صحيحة؟

فيما بعد أردت تعليمي قوانين مندل وكأنها تعاليمك الكنسية، وكأنك قمت باكتشاف معادلات لحل لغز العالم، لكن وعلى نحو مفاجئ بدأ الانحدار، وبعد النزاع البغيض مع زميلك في العمل

وصديقك، لم تعد نفس الإنسان، أحسست بأن الحياة قد خانتك وأيضا نجاحاتك المهنية باعث بالفشل، والشاحنات لم تعد تنقل منتجاتك إلا نادرا، والمكالمات الهاتفية في الليل صارت قليلة، وسرعان ما توقفت. وفجأة أصبحت مريضا، وأصبحت بمرض تكس الأقراص الفقرية، وكنت تصرخ من الألم، وتتلوي على الأرض، وتمد ساقيك وتقلب الطاولة. وعندما كانت نوبة تقلص الأعصاب تفاجئك فقد صوابك، كنت تضرب بعنف على الجدران بيديك حتى تدمى وتصيح: أنا لا أتمني ذلك حتى لأسوأ أعدائي. كان عمرك في ذلك الوقت يربو قليلا على الأربعين، أزمة منتصف العمر، كما كنا سنطلق عليها اليوم، لكنها في حالتك خاصة تركت فيك أثرا كبيرا، وأصبحت حياتك كلها مهددة. من الذي سيتولى إدارة الشركة؟ واضطررنا في وقت لاحق إلى بيع السيارة والبيت. وانتهت حياتنا الجميلة، سأصبح مقعدا عاجزا، كنت تقول إنكم لا تدرون ماذا يعني ذلك لرجل مثلـي، أنا لا أريد أن تستمر حياتي هكذا، بهذا الشكل لا أريد أن أعيش، أن أقتل نفسي بالرصاص أفضل لي.

هل كنت تسمعني طوال الوقت؟ هل مازلت تتذكر كل هذه الأمور؟ بعد ذلك تعلق الأمر بالسؤال ما إذا كنت ستُقدم على إجراء عملية جراحية؟ كنت تصرخ قائلا، إن هذا أمر خطير للغاية، لا أريد أن يقترب أحد مني بمقبض الجراح.

ثم قمت بالبحث عن طبيب يعالج بالمداواة الطبيعية، وكنت تحرّ نفسك إلى التاكسي، وتبدو مثل أحدب نوتردام، وتتجه إلى منطقة إبينتسيلشا. أنت، بالذات أنت من كان ضدّ مثل هذه المعالجات الفاشلة، وكنت لا تؤمن إلا بالمنهج العلمي على نحو

جازم. كنت ترك نفسك كي يلفوك في أحزمة دافئة، وكانوا يضعون لك قائمة خاصة بالطعام: على أي حال أنا لا أريد نبيذا أبيض أو أي شراب مسكر فإن ذلك ينبه الأعصاب بشكل مفرط. وقد بدت هذه العلاجات ناجحة، رغم الانتكاسات القليلة، والتي كان يتم علاجها وتزول الأزمة الصحية. إنه عبقرى، هذا الطبيب، وقامت بتوجيهه وفيما بعد كنت تلتزم بنصائحه. قبل كل شيء لا تتعرض لتيار هوائي، تيار الهواء هوأسوا من كل شيء، وعدت ممتنعا بصحتك مرة أخرى، وقامت ب مباشرة أعمالك وتوقفت عن التدخين.

لكن بدا أنك قد تغيرت، وأن الثقة الأساسية في داخلك قد اهتزت. وضريرات القدر قد تركت آثارها عليك، وأصبحت بعض الشيء غير مكترث بالحياة، وعلا كرشك قليلا، وزاد وزنك أيضا، وصرت عنيدا. ماذا حدث لك في ذلك الوقت؟ هل كان ذلك فقط داء تنكس الأقراص الفقرية؟ كنت تريد حتما طفلا ثانيا لا كان عمر الأم حينها يزيد على الأربعين، وكانت قد عانت من حالة إجهاض تلقائي في البداية، وفي المرة الثانية، تم الحمل، ونزل الجنين في شهره السابع. كانت بهجتك تشير المشاعر، أنا مازلت أتذكر ذلك جيدا، ثم أصبحت إعاقته واضحة، واضحة بشكل بارز، حتى إن الصغير لم يمكنه المشي أبدا. في ذلك الوقت تم التخلص من كل أحواض السمك، وتکاثرت الشجيرات في الحديقة ولم تجد من يقطعها، ونما العشب وتفشّت الأعشاب الضارة، وتشابكت فروع التوت البري بعضها في بعض على الشجيرات المتکاثرة، وبدأ طلاء إطار النوافذ في التشقق والتقشر. ماذا كان يحدث يا أبي؟ هل كنت قد خسرت المعركة ضد الحياة في ذلك الوقت؟

على مقرية هنا، وفي كراج، تسلق حيوان ابن عرس طويل الذيل إلى مكان محرك سيارة جيب شIROKi، وبدأ يشم بأنفه الصغير الرطب الأسلام المختلفة المغطاة بالبلاستيك، وقام بالتسليق من موزع محرك السيارة إلى الكارياراتير وضفت جسمه ليسقط حيث توجد أسلاك الفرامل، وبدأ في قرضها والعض فيها بحماس. أما صاحب السيارة فكان يجلس في غرفة المعيشةظلمة، متآملاً من خلال النافذة في مناظر الطبيعة ليلاً. كان يسمع ماكينات الحصاد، ويرى كيف أن نور أحد الكشافات يضل طريقه إلى غرفته؛ ويضيء أحد الأباريق المصنوعة من القصدير فوق المدفأة.

وعلى بعد عدد قليل من المنازل، كان ثالتر وأبوه يستطيعان سماع الضوضاء لو لم يحجب هدير محركات ماكينات الحصاد كل صوت آخر.

وبعد عدة منازل، كان هناك حفلة عيد ميلاد، وكان هناك رقص في غرفة المعيشة، وشرب البعض الكثير من الخمر، وكانت النافذة مفتوحة على مصاريعها، وتجمعت مجموعة صغيرة من الناس في الشرفة.

أخي العزيز: لم تُمنحك إمكانية الكذب، ولم يكن في إمكانك مثلي أن تتقد نفسك بتصويبات صغيرة، لم يبق لك في صدقك إلا الهجرة إلى الداخل. صار كل أفراد الأسرة مراقبين لك. اسحب ساقيك، لا تستند هكذا إلى الوراء أو العكس: اتركوه وشأنه، لا تسمعوا كلام الآخرين! كل إثارة تلقائية كان يتم إبعادها عنك. كنا جميعاً نتمنى لك الأفضل، كنا فقط نريد أن تصير طبيعياً بقدر الإمكان. كانت الأصوات العالية تزعجك

بشكل كبير، رغم ذلك صرنا معروفين في المنطقة بأننا العائلة الأعلى صوتاً، فكان كلامنا العادي صراخاً، لا تتحدث بصوت عالٍ، كانت الأم تقول للأب والأب يقول للأم. مناقشاتنا تحول بسهولة إلى صراخ، أنا والأب، بينما كنت تجلس على طاولتك متوتراً وملتفتاً بوجهك بعيداً. أمرٌ غريب أن يكون بهذا الهدوء، رغم أنه ينتمي لنفس الأسرة! فليس لديه نفس المزاج الحاد، ويمكن فعل كل شيء مع مثل هذا الشخص، إنه لا يقاوم على الإطلاق ولا يملك إرادة خاصة به، فهذا أمرٌ غير مفهوم، وليس له علاقة بالإعاقه، كان يقول ثالتر في نفسه: هل مازلت يا أخي تتذكر الساعات التي كنت تؤدي فيها التمارين في الحديقة؟ ذات مرة قمت برفع كلا العكازين عالياً، وبقيت أنا أعد، كم من الوقت تستطيع حفظ توازنك من دونهما؟ ثم كانت هذه النزهات سيراً على الأقدام على الطرق بين الحقول أكثر من مئة متر أو مئتين؟ أحياناً كنا نشعر بالرضا والصفاء، لكنني لم أستطع أن أفهم في ذلك الوقت لماذا رغم كل مجدهاتي، لم تتحسن حالي سريعاً! وعندما عدنا إلى البيت، لمست الأم رأسك وصاحت: يا إلهي، إن شعره مبتل، لقد أجهد نفسه كثيراً. ودافعت أنا عن نفسي، وسألتك إذا كان ما فعلناه قد أعجبك أم لا، وماذا كانت إجابتك، قلت نعم بصوت خفيض أو فضلت السكوت، وكان ذلك أفضل حلّ بالنسبة لك!

الأب خاصة لم يفهم، لماذا لم تكن طموحة؟ لماذا يريد في الحقيقة؟ إنه يستطيع أن يفعل أي شيء يريد، لكنه لا يريد أي شيء على الإطلاق، إنه إنسان بلا إرادة. المعاقوون بالتحديد يمتلكون دون الآخرين عزيمة صلبة، أما هو فليس لديه طاقة

مطلاً. أسائلوا الأطباء، ردت الأم، فسيقولون لكم ماذا يعني أن تكون إنساناً شديد الإعاقة.

وبحرص تم تجفيف مؤخرة رأسك، ومساعدتك في الجلوس على الطاولة، وحصلت على عصير برقال طازج. كي يمدّ جسده بالفيتامينات الكافية بعد ذلك الإجهاد، قلت في نفسي، ليس لديه فرصة أبداً في مواجهة الأم! والابن الأصغر، الابن المعاك، استمر في محاولته الهبوط من فوق الدرج، ووضع قدمه قبل أخرى، كيلا يسقط محاولاً الوصول إلى الهدف. يجب أن أكون جاهزاً لمساعدة الأم، إنها في حاجة إلى طبيب، جرّ قدميه المنفرجتين فوق الأرضية ذات الحجر الرملي مستنداً على عصاه وعلى السور. أمي ينبغي ألا تموت، يجب أن تبقى على قيد الحياة، وتصبح سليمة مرة أخرى. في استطاعة الطبيب أن ينقذها، ينبغي ألا تصير مشلولة، أو أن تفيق من غيبوبتها على الأقل، فلا يمكن أن تبقى ممددة على ظهرها فوق السرير هكذا. ربما يكون مصيرها بيتاً لرعاية المسنين، ولكن أين سأذهب أنا؟ هنا مرة أخرى درجة سلم، سلالم الدرج هذه الملعونة، لأول مرة يصبح غاضباً حقاً، أحس بالعجز، واليأس، وامتلأت عيناه بالدموع: سوف يصبح الوقت متاخراً جداً، كل شيء يستغرق زمناً طويلاً جداً وأنا لا أحقق أي تقدم على الإطلاق. أدار نفسه مرة أخرى تسعين درجة، ضغط عصاه تحت ذراعه اليسرى، وحاول أولاً وضع القدم اليسرى فوق درجة السلم التالية.

شعر بساقيه ترتعشان بقوة من الجهد، بعدها حاول جرّ قدمه اليمنى. انقطعت أنفاسه؛ درجة سلم بعد الأخرى، صار منهاكاً، لم يعد في وضع يسمح له تكريباً بأن يقوم بأي حركة منتظمة، لكنه

أخيرا نجح في النزول، وآخر درجة في السلم، تمكن من التغلب عليها. لكن الآن كان السور قد انتهى، وعليه أن يمشي مترين أو ثلاثة أمتار إلى الأمام، في هذا المكان الذي هو فيه الآن، لا يمكن لسائقي السيارات رؤيته، لو أعطاهم أية إشارة، وكشافات ضوء السيارات لن تكشفه، هنا يبقى في الظلام. ها هي سيارة هناك! المخروط الضوئي لكشاف النور حتى لم يلمسه، لم يتمكن أحد من رؤيته في هذا المكان.

اقترب ثالتر مع أبيه وهو فوق ظهره، الآن من أحد المزارع، وسمع نباح كلب، عندما خفت صوت ماكينة الحصاد العالي بقرب تل صغير، أسرع خطواته ومشى بعيدا عن المزرعة، وهنا بدأ الأب فجأة في الكلام. تكلم دون انقطاع، تكلم، وتكلم، طرح أسئلة لكنه لم ينتظر الإجابة، كان يوجد في مكان ما، غاص ذهنه في ماضيه، تكلم عن أمه، وعن أبيه، عن المدرسة، تكلم عن زوجته. شتم ولعن وانفجر صارخا على نحو مفاجئ!

قام ثالتر بشد قدم أبيه، لكن العجوز لم يرد أن يتوقف، قذف بعبارات مشحونة بالكراهية من داخله، وأثناء ذلك بدأ في البصق، وتجمعت البصاق فوق رأس الابن. صاح الابن في أبيه: توقف! دعك من ذلك! لا يمكن تحمل ما تفعله. وفجأة تخيل ثالتر، كما لو كان لا يحمل الأب فوق كتفيه، كما لو كان يراه أمامه مباشرة، قريبا للغاية، كما لو كان ينظر في عينيه الحمراوين كالدم، كما في الماضي عندما كان طفلا، وكان يخاف منه، هذا الأب الذي كان يقرر كل شيء! كان يريد أن يصرخ في أبيه، لكن عروق حنجرته ضاقت، ولم يخرج منها أي صوت. وفي ذروة انفعاله قبض على أذني الأب، فتهشم غضاريف الأذن

الأب

وكانها من جوز الهند، وأمسك بخديّ الأب، فانفصل الخدان من العظم، وسقط لحم الخدود من الجمجمة. أبي! صرخ فجأة، وأفاق من الخيال!

واستمر الأب في صراخه وهديره فوق ظهر الابن، ولم يخضع لرغبات الابن في إسكاته. وفك ثالتر في أن ينزله من فوق ظهره، مثل حقيبة ظهر أشاء فترة استراحة. فكر في إنزاله على الأرض، وأن يسد فمه بحفنة من أوراق الشجر، وأن يجبر العجوز على الصمت بوضع قبضة من طحالب مستقعات الغابة في فمه. توقف أخيرا عن الكلام أرجوك! جرى ثالتر وهو غاضب فوق حقل قمح مقصوص، وسال العرق متدفقا عبر جسده، كان يتفسس مثل عداء ماراثون اقترب من الهدف. لكن لم يعد بالإمكان تهدئة الأب، كانت الكلمات تسقط من فمه من غير قيد، انطلقت من زنازين روحه، كأن هناك عفوا عاما حدث داخل أعماق العجوز، وخرج الكل في ذات الوقت، من مختلف الحقب الزمنية، الكل أراد أن يخرج الآن!

صاح ثالتر، إنك تجعلني أجنّ، وسوف أسد فمك الآن. أشاء الركض، حاول وضع يده على فم الأب وعلى بطن يده، أحس بالشفاه المبللة، وبذقه الملطخة باللعاب، والآن تكلم الأب من الرأس، من الأطراف، من عظام الفك، من الرقبة، من أسفل الظهر. تكلم عن الحرب العالمية الثانية، عن توزيع التموين، عن قاعات المحاضرات الكبيرة في الجامعة، وعلى نحو مفاجئ تكلم بالفرنسية بطلاقة، ثم سكت بعدها. استند ثالتر منهكا على حزمة قش مغلفة بالبلاستيك، وقام بمسح عرقه من فوق جبينه، وحاول استرداد أنفاسه مرة ثانية. أيضا الأب كان منهارا بعد

هذا الانفجار البركاني، فقد ارتحت رأسه متديلاً على كتفي الابن، وكأنه ميت. لكن الابن كان يسمع أنفاسه بشكل متقطع ويحس بدقها في رقبته. وفي الأفق، في نهاية الحقل كانت تسطع أنوار كشافات الضوء لأحدى ماكينات الحصاد، ولمس الضوء وجه ثالتر.

للحظة لم يعد يرى شيئاً، كانت هناك نقاط بيضاء تترافق أمام عينيه. وتدرجياً استطاع أن يجد طريقه مرة أخرى، تذكر ثالتر أولى ماكينات حصاد رأها وهو صبي، كانت صغيرة الحجم وليس بها هذا الكمال مثل اليوم، كان القش يُقذف إلى الخلف، ويتم تجميع حزم القش في وقت لاحق. اليوم يتم ضغط وكبس القش إلى حزم كبيرة وتقوم الماكينة بطبعتها في البلاستيك في نفس الوقت. ليس هناك مكان آخر به مثل هذه الحزم من القش على هيئة رجال. رجال القش المكونة والمصفوفة خلف بعضها، هذه الحزم تحدث طقطقة عندما ينزل المطر صيفاً، فتقوم الشمس بتسخين القش، والذي يتتحول لونه إلى البني. عندما كنا نلعب ونحن أطفال على هذه الحقول المحصودة حديثاً، كان الماء يتدفق من سيقان النبات المقصوص فوق سيقاننا العارية، وعندما كنا نلعب الاستخفاء، كان يصيّبنا القرف ونحن نتحنى خلف حزم القش المليئة بالبخار كريهة الرائحة.

كان الذباب يحوم حول سيقان القش محدثاً أزيزاً، وبخاصة الذبابات الزرقاء الضخمة ذات المؤخرة الملونة المتألقة. وعندما كانت حزمة القش تُرفع بعض الشيء، كانت مجموعات من النمل والخناfers وقمل الخشب والديدان تمرح تحتها. وعلى مسافة عدة كيلومترات إلى الأسفل من هنا، ناحية البحيرة، كان

الابن الأصغر، المعاك، يحس بالألم في ساقيه المشنجتين، ولا يستطيع شيء شيء ركبتيه، حاول بكل ما لديه من قوة أن يمنع نفسه من السقوط، ويحافظ على استقامة ساقيه، كما كانوا يعلمونه في آلاف الجلسات من العلاج الطبيعي، لقد بذل كل الجهد.

وتذكر العملية الجراحية التي كان هدفها تطويل عضلات الساق في ذلك الحين، عندما كان عمره خمس سنوات، إنها فرصة، قال طبيب العظام، ربما يمكنه المشي بعدها، من يدرى، ولاح أمل في الأفق، ربما يستطيع أن يعيش حياة عادلة. لقد رقد أسبوعين كاملين على سرير نقال مصنوع من الصلب ومطلية باللون الأبيض، وكلتا ساقيه في الجبس، ولم يتمكن من الحركة على الإطلاق، فالحركة كانت ستقلل من فرص نجاح العملية. كانت لديه كل حيواناته المفضلة من القطيفة وغيرها، ولعب السيارات، والتي كان يلعب بها فوق لوح خشبي صغير، وفي المساء كان لا يريد أن تعود أمه إلى المنزل وتتركه وحيدا في المستشفى.

ذات مرة قام بالتبول في البنطال من الانفعال، وبلل الجبس أعلى فخذيه، وامتص الشاش الخارجي البول، واغتاظت المرضات. في عمرك هذا! والآن تفوح رائحة البول الكريهة منك طول الوقت. نحن لا نستطيع أن نضع له جبسا جديدا، يجب عدم تحريك السيقان، فالعملية الجراحية لن تتكلل بالنجاح، وربما يصير الوضع إلى الأسوأ، ولا يستطيع بعد ذلك تحريك ساقيه على الإطلاق.

بكى أخي عندما سمع ذلك، وتشبث بأكمام الأم، لم يتوقف عن الصراخ، ولم يدع الأم تغادر المكان، في ذلك الوقت كان

غير مسموح بأن يبيت أحد المراقبين مع الطفل في المستشفى، هناك مواعيد محددة فقط للزيارة. لكن الأم قامت بتقديم رشوة لـكبير الأطباء، وللممرضات، حتى تتمكن على الأقل خلال النهار من زيارة ابنها. غير أنه دائمًا وفي المساء وبعد وجبة العشاء، كانت تأتي لحظة الفراق، وكانت الأصابع الصغيرة تحيط بيدي الأم، ويتم فكها بالقوة، ويظل الصغير يئن ويبكي حتى ينام. بعد ذلك صارت ساقاه أكثر نحافة، وكانتا تشبهان ملعقتين خشبيتين بارزتين من بنطاليه القصير. لكن لم يتم الاستسلام لليلأس، ربما يمكنه الآن تعلم المشي، لقد تم عمل الكثير من التمارين معه، وفق الطرق الحديثة، والتي تعلمها اختصاصي العلاج الطبيعي في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة لمرض الشلل الدماغي عند الأطفال، حيث كان تم دحرجه فوق كرات كبيرة، وتمتد ساقاه خلال ذلك، وتتشي وتترفرج. كان يتم عمل كل ما من شأنه تحفيز القدرة على الحركة لديه، بكل الوسائل. وفي البيت كانت الأم تمارس معه التمارين بصبر كبير: خلايا مخ أخرى تقوم بوظائف الخلايا التي بها خلل. في الصباح، وفي منتصف النهار وفي المساء كانوا يضعونه فوق سجادة من المطاط ذات حواف بلاستيكية خضراء. كل شيء كان يتم تعليمه للأطفال الآخرين بسهولة، أما بالنسبة له فقد كان الأمر صعباً، حتى الزحف العادي على أربع كان يتطلب بالنسبة له برنامجاً تدريبياً على درجة عالية من الصعوبة. وبعد كل هذا، كان النجاح الذي أحرزه، يتمثل في تحريك ساقه اليسرى بعض الشيء إلى الأمام. انظروا، يا له من نجاح، كل شيء سيصبح على ما يرام، فقط اتركوا له بعض الوقت، كانت الأم تقول. وتذكر الأخ، كيف

تعلم الأخ أن يمشي مُقادا بعضا، كيف نجح رغم تشنج عضلاته في أن يضع قدما بعد أخرى، وبهزة معينة أن يدفع نفسه عدة سنتيمترات إلى الأمام!

لم يكن مشيا جميلا، ولكنه على أي حال تقدم إلى الأمام. سوف تحسن حالته، قالت الأم، سوف ترون في غضون سنوات قليلة سيسبقكم في الركض، وظل يؤدي التمارين، وبمرور الزمن لم يعد في حاجة إلى أن يحملوه من السيارة إلى المدرسة، وتمكنوا من أن يقودوه إلى غرفته. أبدا لم يسخر منه أحد، كانت المدرسة كلها تعرفه، وفيما بعد في المدرسة الثانوية، وبعد ذلك في الجامعة، لم يبق أبدا شخصا مجهولا، الكل كان يعرفه، كان يتذكر كل ذلك الآن، عندما حاول مرة أخرى أن يسترد أنفاسه. مرة أخرى صاح مستجدا، لا شيء، ثم تهادى إلى سمعه في ظل هذا السكون، صوت يشبه الأنين، لقد تخيل أن أحدها ينادي باسمه. صاح صارخا: أماه! يا أمي. مرة أخرى، لا شيء.

لم يعد يستطيع حفظ توازنه، بركتين مضغوطتين معا كان جسده ينقبض، قبل أن ينحني، دار حول نفسه، حاول أن يستند على عصاه، لكنه سقط على ظهره ووقع بمؤخرة رأسه فوق الإسفليت. قبض على العصا في توتر متشبثا وكأنه يريد كسرها، كان عليه أن ينهض، كان عليه أن يساعد الأم، فرفع رأسه رغم الآلام، فقط لو يستطيع شيء ساقيه، لكنها بررت منتصبة بزاوية عشرين درجة في الهواء، كان شكله يبدو وكأنه ميزان قباني يتربع هنا وهناك. كانت هذه الإمكانية الوحيدة؛ أن يلف نفسه بهزة شديدة إلى الجانب، لكنه بدأ يلهث من الإجهاد، وسمع صفير أنفاسه، ارتعشت عضلاته، واهتز كل جسده، لكنه نجح

في أن يدبر نفسه، وبعدها قام بحركة سريعة، واستطاع أن يصل لوضع الرقود على البطن، والآن ربما يتمكن من الزحف على أربع، ودفع نفسه للأمام إلى مقدمة الكراج، حتى يستطيع سائقو السيارات رؤيته.

استند على ذراعيه دافعا نفسه إلى الأعلى محاولا شد ركبتيه ناحية جسمه، في الماضي كان في إمكانه فعل ذلك بشكل أسهل، لكنه الآن لم يعد يتمرن كثيرا، فقد كان يتحرك معظم الوقت في كرسيه المتحرك.

أخي العزيز: إنك لم تغضب أبدا، ولم أرك باكيًا مذ كنت رضيعا، لم تبك حتى عندما ماتت جدتك! ماذا تفعل في الحقيقة مع مشاعرك؟ في المستقبل أيضا لم تكن تخاف من الأخطار الحقيقية، فقط الأخطار التي يمكن حدوثها كانت تجعلك تحس بالرعب والفزع. اليوم أصبح الواقع، خارج مكانك الذي يضيق دائما، كابوسا يهددك، حياتك اليومية صارت رعبا، أين بقيت في الحقيقة؟ كيف كان بإمكانك كإنسان أن تتقذ نفسك خلال أعوامك الاثنتين والعشرين؟ كيف كان يبدو منفاك الاختياري؟ كيف استطعت أن تحافظ على ذاتك وتبقى كما أنت؟

لكنك، حكيت لي مرة على الهاتف، أن مخاوفك كبيرة، وأنها تهدد بابتلاعك في بعض الأحيان، و كنت تعذر لي لأنك تظن أنك تزعجي، وتضع بعدها النظارة الداكنة فوق عينيك، كانت العائلة كلها تعاملك دائما بعطف وحنان، ولم يشا أحد أن يضايقك أو يزعجك، كنا نبعد عنك كل الأشياء السيئة، فهو لديه ما يكفيه ويتحمله في هذه الحياة، كانت الأم تقول. و كنت تحس بكل صور

الشفقة المختلفة، هذه الشفقة جعلتك تشعر طول الوقت بأنك صغير، لم تمثل خطرا على أي شخص!

إنه ليس فقط طبيعيا للغاية، لكنه فوق ذلك يمتلك ذكاء فوق المتوسط، هذا ما قاله الطبيب بعد اختبار الذكاء، عندما كنت في الثالثة من عمرك، يا له من إحساس بالراحة، الآن نمتلك شيئا مكتوبا، وامتلأت عينا الأب بالدموع، ربما كان مازال في الإمكان إنقاذ الأسرة من الانهيار. صدقوني، فالصغير سوف يجد طريقه، سوف تذهبون، كانت الأم تقول. أيضا مشكلة المشي عنده، سوف تُحل، آجلا أم عاجلا. لقد أنقذت يومنا من الشجار يا أخي العزيز في ذلك الوقت، ونجحت لأول مرة في الاختبار. ربما كان الأب سيحبك أيضا لو كنت متوسط الذكاء، فأنت في النهاية، ابنه، لحمه ودمه، لكن الذكاء يبقى مسألة كرامة إنسانية، والأم ربما كانت ستحبك أكثر، حتى لو كنت غبيا بعض الشيء، فسوف تكون في احتياج لها أكثر. أنا لا أدرى ماذا كنت سأفعل لو كان أخي، ليس فقط جسديا معاقا، ولكن ذهنيا كذلك؟ ماذا كنت سأفعل في ذلك الوقت، وكنت في الخامسة عشرة من العمر؟ لقد تم إثبات أنه طبيعي.

كان متوقعا منك أن تقوم بتادية نشاطاتك اليومية بشكل مستقل، وذلك عندما تصبح ساقيتك مصدر شكوى وإزعاج لنا، حينها فقط كنا ننادي فجأة مطالبين بأن تؤدي بنفسك كل شيء يخصك. من فضلك؛ عليك أن تفعل شيئا، عليك أن تبذل بعض الجهد، لقد كانت نوايانا حسنة تجاهك طوال الوقت، لأنك وحدك لم يكن في استطاعتك أبدا فعل ذلك بهذا الشكل الطيب. إنه من المريح جدا أن يكون لديك أخ أو ابن يعتمد كليا

على مساعدة شخص أقوى وأكثر قدرة منه، عندما تجلس اليوم أمامي في الكرسي المتحرك فأنا أستطيع إدراك نقاط ضعفك، لكن هل أتقبل أنا أيضا نقاط قوتك؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو كانت لك طلبات خاصة، ماذا كان يمكن أن يكون رد فعلك؟ لكنه لا يستطيع ذلك أبدا، إنها فقط مجرد خيالات في ذهني.

مازال فالتر مستمرا على حزمة القش المغطاة بالبلاستيك، كانت ومضات البرق قد زادت قوة، هل تستطيع يا أبي أن تتوقف عن إلقاء خطبك؟ حاول الاستمتاع الليلة الصيفية الجميلة. ما كل هذا الكلام؟ هذه الشرارة؟ أنا لا أقول ذلك مسرورا، شيء غير وقور. هل ما زلت بعد كل هذا، ذلك الإنسان الذي أعرفه؟ هل ما زلت أبي بأية حال؟ توقف أخيرا عن هذا الهذيان والكلام غير المفهوم! الآن هو الوقت المناسب لحوار جاد بين الأب وابنه، وإلا فمتي سندير مثل هذا الحوار؟ لديك فرصة للكلام قبل أن نصل إلى أعلى الجبل، إنك تستطيع إيصال بعض الأمور لي، وتبليغني ماذا بقي لك مهما، وما السقطات التي ارتكبتها في حياتك، ذات يوم سيأتي اليوم الذي تودع فيه الحياة، لن يمكنك حينها أن تقول «إلى اللقاء» أو «تشاءو»، ذات يوم سيصير الأمر نهايأة ومن دون رجعة، وسيؤخذ الأمر على محمل الجد.

سوف تكون سعيدا يا أبي بالمنظر الطبيعي من فوق التل إلى أسفل الوادي، وعندما تشرق الشمس، سوف يمكنك عبر المروج والحقول وعبر التلال المكسوة خفيفا بالغابات، رؤية مكانك المحبوب زiyorخر أوبرلاند، وسوف ترى جبال الألب من سينتيس عبر الجلارنر حتى برنرالبين، المنظر الطبيعي بأكمله، وبعد العاصفة الرعدية وفي شمس الصباح، ستبدو الطبيعة في

أزهى صورها بعد أن قامت قدرة الخالق بغسلها. لن تكون هناك ذرة تراب فوق أوراق الشجر، كل شيء سيكون نظيفاً، وريش الطيور سيلمع في ضوء الشمس، كل شيء وكأنه جديد. وأنت سوف تجلس في الشرفة، وستكون محمياً من الشمس، وأيضاً من هطول المطر المفاجئ، ستسمع فقط صوت طقطقة فوق السطح، وربما بين الفينة والفينية تتفجر قطرة ماء طائشة فوق رأسك الأصلع.

سوف أجعل المكان مريحاً بالنسبة لك، سيكون الماء في متداول يدك، سوف أعد لك زجاجة الترموس، وأجعل غطائها سهل الفتح حتى يمكنك فتحها عند الحاجة دون جهد، وستطوف الصور المنطبعة بذهنك في ذاكرتك، وسيلاحم الماضي بالحاضر، الأمس واليوم، ستتظر إلى الأحداث كما من خلال كاليدوسكوب، ومن حين لآخر سوف تضع زجاجة الترموس على فمك، وسوف تبلل شفتيك بعض الشيء، إنك لن تشرب الكثير من الماء، وسوف يصيبك الجفاف تدريجياً وتصبح مجدهما، وفجأة تسقط أبكم على الجانب، في هذه الحالة سيكون الشأن شأنك، هل سينظر كلُّ منا في عيني الآخر مرة أخرى عند الوداع؟ طويلاً سينظر كلُّ منا في عيني الآخر.

هل ستدرك على الإطلاق أنتي هنا؟ أم سوف أغادر في صمت؟ وببطء أبدأ في الهبوط من الجبل؟ هل ستتملى عيناي بالدموع؟ وهل ستلوذ بالصمت؟ أم أنك سوف تهذى؟ ماذا يمكن أن يحدث لو قمت بالصراخ، بكل قوة، بشكل حارق، مثل حيوان جريح؟ هل ستندم عيناك؟ هل سأقدر البتة أن أنفصل عنك؟ من المحتمل أن أبقى برهة بجانبك، ربما عدة ساعات، ربما يوماً كاملاً، من

يدري ماذا سيخطر بيالي في تلك اللحظة، وهل سيكون فيها كل شيء وبالكاد تحت سيطرتي، أليس كذلك يا أبي؟ سوف ننتظر سويا، بعدها سوف تأتي اللحظة التي سوف أقف فيها وأقوم بتوديعك، سوف تأتي اللحظة التي سأمد يدي لك فيها للمرة الأخيرة، وربما أحضنك مرة أخرى، أحضر جسدك النحيل، وربما أقوم بطبع قبلة على جبينك، ولن تخرج مني كلمة، لأن صوتي سوف يخذلني، لقد كنت دائمًا أخشى ذلك. ربما قلت إنه ينبغي أن أتماسك، لكنني لا أستطيع أن أقبض على أسنانى وأن أفتح فمي في نفس الوقت وأقول شيئاً ملائماً، أم أنه كان علي أن أرحل بعيداً صامتاً وبكل بساطة؟ ربما تكون في تلك اللحظة ساقطاً على جنبك.

وعندما ألتقطت إلى مكانك بعد هبوطي من الجبل عدة مئات من الأمتار، هل يجب أن أعود إليك مرة أخرى؟ بين الفينة والفينية سوف تطير طائرة فوقك تاركة آثار دخانها الأبيض، وأسراب البعوض سوف ترقص حولك، والذباب سوف يطن فوق رأسك، وسيسقط على جسدك وسوف يدغدغك، وسوف تقوم بإخافته بحركة لا إرادية، وفي وقت ما ستتصبح غير مكتثر بها، ستزحف فوق شفتيك وجفنيك، ربما تغمز بعد بعينيك، أو ربما تحملها وأنت ساكن بلا حركة، عندما تحك بخراطيمها فوق مقلتيك. على أن أثبت لك الخدمة الأخيرة؟ ماذا تتوقع في الحقيقة مني؟ ماذا تخيل في الواقع أن أقوم به؟ هل يجب أن أخنقك؟ أم أقتلك؟ أم تريد مني أن أحضر حجرا ثقيلاً في يدي، وأرجع بيدي إلى الوراء، بعيداً إلى الوراء، ثم أرميه بكل قوة فوق رأسك العجوز، حتى تتحطم عظام رأسك؟ هل سيكون ذلك

مناسباً لذوقك؟ هل سيكون ذلك عملاً رجولي؟ واجب الابن؟ لا تغادر؟ وانظر في العيون؟ هل كنت تعني ذلك؟ هل أبدأ الآن في فهمك؟ أم يجب أن أدفعك إلى الأسفل عبر الحائط الصخري وأسمع كيف سوف يسقط جسدك تحت، فوق الأعشاب المقصوصة؟ هل عندها سيتم تسليم العصا كما في مسابقات العدو، من الأب إلى الابن، من رجل إلى رجل؟ أنا أخشى يا أبي أن أصبح في يوم من الأيام وحيداً، كما أنت الآن، أخشى أن أستيقظ ذات صباح ولا أجد إلا الوحدة تلفني مثل صقيع. هل سأسافر حاملاً كيس البلاستيك، يطاردني هذا القلق الغريب في أعماقي؟ هل سأقوم أيضاً بتأدية تمارين الضغط، قوياً وصارماً، كي أثبت لنفسي أن كل شيء لا يزال على ما يرام؟ وهل سأقوم أيضاً برفع نفسي عالياً متاؤها، حتى تقفر أوتاري من مفاصلني، وحتى تتمزق عضلاتي؟

قام ثالتر بدفع نفسه بعيداً عن حزمة القش، وحمل الأب ثانية إلى الوضع الصحيح، إنه يشعر الآن بحزام حقيبة الظهر على كتفيه، لكنه كان متبعها لهذا الأمر، فقد كانت معه المناديل الورقية التي قام بطيئاً وحشرها تحت حزام الجلد. صار صوت ماكينات الحصاد ضعيفاً مع مرور الوقت، ولم يعد هناك إلا أصوات الليل، هذا لم يكن فقط وميض البرق، لقد بدأت العاصفة الرعدية بالفعل فوق بحيرة الأوبرزيه، والآن يمكن سماع صوت رعد بعيد. نعم يا أبي، أنا أخشى من الوحدة، أخشى هذا القلق الذي كدر حياتك، وخطرت مارا على ذهن ثالتر، والمناقشات التي تمت صباحاً، عندما يبلغ المرء سنّ الخمسين، لا يستطيع أن يُنهي علاقة هكذا بسهولة ويبدأ علاقة جديدة دون تفكير.

على نحو مفاجئ يصعد الخوف في داخل الإنسان، كما البرودة في غرفة ليست دافئة، تبدأ البرودة عند الأقدام، وتنسلق عالياً لأسفل الساقين حتى الركبتين، وسرعان ما تلف الجسد كله سحابة ضبابية من الثلج الجاف. مراراً وتكراراً ما أعود إلى نفس النقطة في علاقاتي. في الماضي كنت ألقى باللوم على النساء عند فشلي معهن، يجب أن تنفصل، انصرفي، كنت أصبح كل مرة وبجرأة وفي غمرة حزني اليائس، ذات يوم سأعثر على المرأة المناسبة، أقول في نفسي. وبالفعل مراراً كانت هناك علاقة جديدة تبقى لبعض الوقت، ثم يتبيّن أنها المرأة غير المناسبة، لكن اليوم أصبحت أنا الشخص غير المناسب، صرت متشككاً، ولكنني أريد أن تعود العلاقة من جديد، ولكن ماذا أفعل لو كانت مارا لا تريده؟ هل تعتقد أن هناك مخرجاً يا أبي؟ عندما كنت طفلاً، كنت في بعض الأحيان أفكّر أن هناك شيئاً ليس صحيحاً في شخصيتي، كنت أعتقد أن هناك شيئاً ينقصني كي أصبح إنساناً كاملاً. يبدو أنه كان يجب عليك أن تجعلني مادة لتجاربك في القبو، ربما لهواياتك الحرفية والفنية.

وبعد ذلك عندما جاء أخي الصغير إلى العالم بإعاقته، تحول ظني إلى يقين. تجاربك في النسل ضلت السبيل، تبين لي فيما بعد أنك بريء ولست مسؤولاً عن إعاقة أخي، فتحن نولد والخلل في داخلنا. لم تنفصل أبداً عن أمي بشكل نهائي، فشجاركما وصراعكما، كان بمثابة ضرورة حياتية لكل منكم. منذ شبابكما المبكر، كنتما متداخلين ملتحمين حتى أيامكما الأخيرة أنهك كل منكم الآخر، ولم تنفصلَا، كان كل منكم مرتبطاً بالآخر. هل كان الحنان مستتراً في الشجار بينكم؟ هل كان حبكما مخفياً

في الإهانات؟ وشهواتكم أسيرة الكراهية؟ ماذا أفعل حقاً الآن
لو لم تعد مارا إلى؟ فالوحدة مع تقدم العمر تصبح أمراً لا يمكن
تغييره، من دون شريكة حياة أشعر بالضياع، فأنا في حاجة
دائمة إلى الحب، ومن دونه لا أستطيع الحياة.

أرجعي إليّ يا مارا، يجب أن نحاول العيش سوياً مرة أخرى،
ثالثر كان سعيداً، لأنّه استطاع أن يمضي، فقد كان يخشى أن
يصاب بالجنون مع كل هذه الصور التي تطارده، لقد غادر كما الأب
في الماضي، ربما بدأ الآن في أن يحل محله، ربما كانت هذه بداية
حقبة جديدة في حياته، ربما يخرج للسير يومياً عدة كيلومترات في
الحيّ، حتى يمكنه التغلب على الخيالات التي تلاحمه، والمساعب
والآزمات اليومية والواقع بكل تفاصيله ومشكلاته، سيخرج للسير
في الشوارع، مثل مجنون كي يستريح من قلقه ويصبح سيد نفسه،
وإن لم يكن كل ذلك كافياً، فماذا سيفعل إذن؟

أرجعي إليّ يا مارا! وإلا فسأصعد الترام ذات يوم، وأظل
أصرخ وأصرخ، وأشتم البنوك، وبابا الفاتيكان والأحزاب
السياسية، وأشعر أن كائنات من الفضاء تطاردني. هل تسمع
صوت الجداجد يا أبي؟ إنها تزقزق وتفرد بقوّة كما في الجنوب،
أود يا أبي أن تعلّمني الحياة مرة أخرى، أريد أن يجعلني مستعداً
لنهاية اللعبة، أن تريني كيف يبدو الأمر عندما تخمد طاقة
الحياة، عندما لا يستطيع المرء فجأة توجيه البوصلة ناحية
المستقبل، عندما لا يمتد الأفق عند السير، بل يتوقف فوراً مع
رعشة وإلى الأبد.

وصل ثالثر إلى تلّ صغير، وبدأ يتبع في سيره سياجاً
كهربائيّاً، ترقد خلفه بقرات تجترّ ويبدو شكلها وكأنّها أكواام

ترابية. هل كنت مستاء يا أبي لهذا السبب؟ ويبدو وجهك عابساً؟ هذه الآلام والهموم لا يمكن التعبير عنها للأسف، حتى لأقرب الأصدقاء، يمكنك التلميح فحسب. في اللحظة التي تخرج هذه الأفكار من أعماقك، تفقد معناها وتصير تافهة. انظر إلى أسفل التل، إلى البيوت، والقرى، والمناطق السكنية، معظم الناس تمام الآن!

المتزوجون يرقدون جنباً إلى جنب ويتفسون بعمق، والأطفال نصف مغطاة لسخونة الجو، ينامون حاضنين دمى الدببة، وكبار السن يتقلبون في فراشهم بقلق، والكلاب تتمدد فوق البلاط الحجري البارد، والقطط تمكث في الحقول المقصوصة حديثاً أمام حفر الفئران في انتظار الغنيمة. إلى الأمام يا أبي، علينا أن نسرع الخطى، فهناك رياح خفيفة تهب الآن، وصوت الرعد يصبح دائماً أعلى، هطول المطر بات قريباً يا أبي. ماذا يحدث ذات يوم عندما لا يستطيع الرجل أداء واجباته؟ كيف يكون الوضع عندئذ؟ عندما يصبح الرجل عاجزاً فجأة؟ متى تبدأ هذه المرحلة يا أبي؟ في عمر السبعين؟ أم في الثمانين؟ أو ربما بعد ذلك؟ عندها يصبح الرجل أسيراً لذاته.

نعم، عن الأشياء الصغيرة اليومية، لا يريد أحد أن يتكلم، رغم أنها أحياناً تجعل الإنسان تعيساً أو سعيداً. كيف تريد أن تخبر أحداً، إنك الآن ترى وتدرك الطبيعة بعيون أخرى؟ فعندما تنظر إلى الطبيعة الآن، يعتريك التوتر وتجتر الذكريات، وهذا هو الأسى والحنين؟ الآن أستطيع أن أفهمك فجأة يا أبي بشكل أفضل ومكانك المحبوب زiyorخر أوبرلاند، معظم الناس خلدت إلى الراحة في البيوت، لقد ناموا رغم سخونة الجو!

في مستشفى الحي زارت ممرضة في مناوبة الليل، مريضاً تم إجراء عملية جراحية له للتتو، سأله عن حاله، وراجعت نبضه. وقائد سيارة مخمور لم يسيطر على السيارة المسرعة وهو في طريق العودة إلى البيت، جانب الجسر وقد أشلاء ذلك غطاء إطار السيارة وواقيه، حيث قفز فوق الإسفلت محدثاً ضجيجاً، لكنه استمر في قيادة السيارة وأضاء كشافات النور. أما الابن الأصغر المعاقد فهو ما زال راقداً أمام الكراج، وقد حاول دفع نفسه زاحفاً على أربع إلى الأمام قليلاً، دائمًا ما تمر سيارة، لكن لأن أحداً لم يلحظه، قرر أن يزحف قريباً في نطاق ضوء كشافات السيارات المارة. في بعض السيارات، كان لا يوجد غير قائدتها فقط، في طريقهم من المطار إلى منازلهم، وقد قاموا بتخفيف أربطة العنق، وكانوا يسمعون تقرير الطقس وأخبار البورصة، آخرون كانوا مخمورين بعض الشيء، وكانوا في طريق عودتهم من جلسة أنس لعبوا فيها الورق وهم يصوروون ويدندنون أغنية معاً، ومتزوجون في ثياب السهرة الأنique عادوا إلى بيوتهم، ربما كانوا في حفلة موسيقية في الهواء الطلق، أو ربما في حفل في ليلة صيفية، وأخرون يجلسون كالخرس جنباً إلى جنب، فقد شاجروا في طريق عودتهم، وكانوا يخشون من الدخول إلى البيت معاً، ومن وقوفهم الصامت سوياً في غرفة الاستحمام.

الأخ الصغير كان قد تعلم عندما كان طفلاً، أن يبقى على ركبتيه في زاوية قائمة لعدة دقائق، كان هذا تمرينًا مهمًا في العلاج الطبيعي الذي كان يتلقاه، ومن حين لآخر كانت ساقاه تتمددان من تلقاء نفسها، وكانت الألم أو المعالج الطبيعي يقومان بشيء الساق مرة أخرى، كان الوضع يتحسن دائمًا، وبمرور الوقت

نجح في دفع ركبة واحدة قليلاً إلى الأمام، دون أن تمتد الأخرى في نفس الوقت لا إرادياً مرة أخرى. وهو الآن يحاول ذلك أيضاً، لكنه لم يعد تمريناً، كان الإسفلت خشناً، والاحتراك قوياً، لم يستطع التقدم إلى الأمام، حاول رفع ركبته بعض الشيء، على الأقل المسافة القصيرة إلى السور للوراء، يجب أن يتغلب على نفسه لإنجازها، ومرة أخرى مرت سيارة مسرعة، هذه المرة صرخ بكل ما أوتي من قوة: مرة أخرى لا شيء.

قبض على الأعمدة المثبت فيها السور، وحاول النهوض على ركبتيه، جذب نفسه عالياً، واستطاع الوقوف على أطراف قدميه، بدأت ساقاه في الارتفاع الثانية، لكنه نجح في السيطرة على عضلاته، استند بيد على السور، وبالأخرى قبض على عصاه وبدأ يبحث بها عن فرع شجرة قوي، عثر على واحد وقبض عليه، تلمس بالعصا بحثاً عن فرع آخر، الفصون الصغيرة كانت تبرز في وجهه، كان يحس بأوراقها الطرية، كانت تدغدغه. شعر بالجرأة، ومد يده سريعاً، لكن الفصن التالي كان ضعيفاً، وأصبح في حالة يمكن أن يفقد فيها توازنه، وأن يدور حول نفسه، بكل قوة ضغط بالعصا على الأرض، لكن العصا انزلقت إلى الجانب، وكانت آثار المطاط ظاهرة على الإسفلت، ومدّ يده إلى جذع الشجرة من نوع الشرد الأوروبي، وفي أثناء ذلك خدشت فروعها الصغيرة وجهه، لكنه تمكن من الاستead، واستطاع أن يشد عصاه ثانية، سيارات مسرعة كانت تمر طوال الوقت، أحد سائقي السيارات كان يحاول ضبط إحدى محطات مذيع السيارة، فضل للحظة غير منتبه عند المنحنى، ثم اندفع بالسيارة بشدة حتى أوشكت أن تقلب أمام الكراج، ومرت سيارة

أخرى، يجب أن ينتبه أي شخص لوجوده، ما الذي ينبغي على أن أفعله؟ أنا لا أستطيع أن ألقى بمنفسي في الشارع، وأدع السيارات تدهسني. انظروا تجاهي أخيراً إليها المغفلون؛ صرخ في يأس؛ لا ترونني؟ أين تحملقون؟.. لو أنه استطاع أن يتقدم متراً أو مترين إلى الأمام، لأصبح في نطاق ضوء كشافات السيارات ولتمكن سائقوها من رؤيته!

متتلاً من جذع شجرة صغير إلى آخر أخذ يتحرك ناحية الشارع، وعندما رأى ضوء كشافات السيارات القادمة من بعيد، أصبح على أهبة الاستعداد، وبحرص أدار نفسه في الوضع الصحيح، قبض بيده اليمنى على جذع شجرة الشرد الأوروبي بقوة، وبدأ يلوح بعصاه عندما ظهرت سيارة عند المنحنى، مرة أخرى لا شيء، وبسبب الحركات العنيفة لذراعه اليسرى، صار الآن مرة ثانية في وضع ربما يفقد فيه توازنه، لكنه في اللحظة الأخيرة استطاع أن يقبض بكلتا يديه على جذع شجرة صغيرة، لاهثا وبركبتين مرتعشتين مضمومتين معاً، أراد أن يستريح برهة قصيرة، بعدها انحنى ببطء، كي يمسك ثانية بالعصا التي كانت قد انزلقت منه.

أحس ثالتر بالألم في ظهره، وبدأ يشعر بشغل وزن أبيه، لكنه أصبح سعيداً لأنّه وصل إلى أرض مستوية، فعلى الطريق الضيق بين الحقول، استطاع أن يمشي بسهولة أكثر، وكان يسمع من بعيد ضوضاء ماكينة حصاد، وبدأ الألّب في اللعن مرة أخرى، كان يتكلّم دون انقطاع عن زوجته، تلك المرأة التي دمرت حياته كلها. توقف عن هذا الهراء، صرخ ثالتر، أنا لا يمكنني تحمل ذلك، عندها أصبح الألّب قلقاً وبدأ في التململ وهز رجليه بقوة،

وفجأة ظهرت ماكينة حصاد بعيدا، حيث بدأ الحقل في الانحدار قليلا، كانت وكأنها مروحية هجومية بدت وعلى نحو غير متوقع في الأفق، كشافات النور كانت تضيء وجهيهما، والماكينة العملاقة اتجهت نحوهما، توقف عن الكلام! صرخ ثالتر أثناء الضوضاء في أبيه؛ أنت تجعلني أفقد توازني! أخذت ماكينة الحصاد طريقها نحوهما بضجيجها العالي، وبدا وكأن السائق لم يلحظهما.

تبعد الأحداث وكأنها في فيلم «الشمال الغربي» من إخراج هيتشكوك، قال ثالتر في نفسه، كانت طائرة صغيرة تطارد كاري جرانت فوق حقل واسع، في اللحظة الأخيرة استطاع ثالتر أن يقفز إلى الجانب في حقل الذرة، سائقون مجنون! وما زال الأب مستمرا في شتائمه، ولم يعد من الممكن تهدئته. خلف ماكينة الحصاد كان القش الجاف يطير في الهواء، وارتفع التراب. بدأ ثالتر في السعال، ولم يتوقف عن اللعن، وعاد للسير على الطريق بين الحقول. انتظر، سأريك، تملكه الغضب، حتى إنه بدأ مرة أخرى في الركض، وبدأت رأس الأب تتأرجح بقوة هنا وهناك، إلى الأعلى وإلى الأسفل، مثل رأس رضيع. اقفز، اقفز، أيها الفارس، صرخ في أبيه إلى فوق، عندما يسقط، فسوف يصرخ ركض وركض، حتى سكت العجوز، لكنه بعد ذلك بدأ من جديد في الصراخ، الذي حجب ضوضاء ماكينة الحصاد، وكانت قد بدأت في الابتعاد.

استنشاط الأب غضبا، وبصق، ثم بدأ يخدش بأظافره، ويصرخ. انفجر مثل صاروخ ألعاب نارية، وهو يبصق شعاعا ناريا أخيرا، قبل أن يحمد نهاييا، حاول ثالتر حفظ توازنه، والتماسك

الأب

رغم حركات الأب فوق ظهره، مشى بساقين متباينتين مثل بحّار في جو عاصف، وكان على وشك السقوط على الأرض، واستطاع في اللحظة الأخيرة أن يستند على جذع شجرة كمثري، وقام بضغط الأب على الجذع، حيث لم يكن هناك أمام العجوز أي مجال ممكّن للحركة سوى أن يحرك قدميه وذراعيه فقط بعض الشيء، مثل دمية متحركة الأطراف. توقف ثالتر لحظة وهو في غاية الإرهاق، أخيراً وجد طريقة يكبح بها الأب، هذا العجوز النافر، وإرجاعه إلى رشده.

لقد بدأ ثالتر الآن يفهم العاملين في دار الرعاية على نحو أفضل، إنه يفهم الآن غضبهم، غضبهم الرهيب. في هذه اللحظة بصدق الأب مرة أخرى، وغرس أسنانه الأمامية والتي ما زالت سليمة في جلد رأس الابن، وشد شعراته القليلة المتبقية. ضغط ثالتر جسد العجوز على جذع شجرة الكمثري، واستمر في ضغطه، حتى إن الأب لم يستطع التنفس وتوقف أخيراً عن العض والبصق، وارتخت يداه وسقطتا إلى أسفل. وابتعد ثالتر بجسده على جذع شجرة الكمثري، وبدأ في إكمال سيره، تذمر قليلاً، وقال في نفسه؛ قريباً سيهطل المطر. منذ وقت وأنا ملتزم بأن أكون مسالماً معك يا أبي، في الماضي كنت أستطيع مقاومة أفعالك، لكنني اليوم تزداد خشتي من أن أصير مثلك. إن ذلك كالقدر، لا يمكن إيقافه، فالحياة تصبح من يوم لآخر أكثر جدية، الآن أعتقد ذلك.

أشعر بالقطرات الأولى من المطر، هل أبدأ العلاقة معها من جديد؟ مع مارادونا أعتقد أنه من الصعب إصلاح ما تم كسره. إنه يعرف ذلك، عندما تبدأ علاقة ما في الانزلاق، عندما يبدأ

كل شيء في الانهيار، فعلى المرء في هذه اللحظة أن ينسى هذه العلاقة بالمرة.

ربما في لحظة سعيدة، يبدأ كلام جميل، وتشتعل العواطف، عندما تلتقي العيون. بعد ذلك وبعد نهاية اللقاء، يعود الصراع بينهما كما كان، ويعود كل منهما لدوره القديم، لكنه يفتقدا الآن، ماذَا حَدَثَ فِي الْحَقِيقَةِ لَهَا؟ إِنَّهَا تَعْرُفُ مِنْ أَنَا، مِنْذَ بَدَأْتُ عَلَاقَتِي، مَاذَا لَمْ تَعْدْ تَحْمِلْنِي؟ مَاذَا جَرَى لَهَا؟ لَوْلَمْ أَكُنْ أَحِبُّهَا، لَكُنْتُ تَرْكَتُهَا مِنْذَ زَمْنٍ، لَقَدْ كَانَتْ حَيَاتِي مَعْهَا رائِعةٌ بِالْفَعْلِ. بِدَأْيَةٍ تَعَارَفْنَا، وَاللَّقَاءَاتُ الْأُولَى الْجَمِيلَةُ، وَأَحَادِيثُنَا الَّتِي كَانَتْ تَمْتَدُ لِسَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ، فِي نَزَهَاتِنَا فِي الْجَبَالِ، كَنَا نَحْسُنُ أَنفُسَنَا خَفَافًا وَنَحْنُ هُنَاكَ فِي الْأَعْلَى فَوْقَ قَمَمِ الْجَبَالِ، وَكَانَ التَّقَاءُ جَسَدِنَا وَرُوحِنَا يَجْسِدُ قَمَةَ الْحُبِّ، مَاذَا وَفْجَأَهُ يُضِيعُ كُلَّ هَذَا؟ هَلْ أَصَابَكِ الْجُنُونُ يَا مَارَا؟ الْآنَ بَدَأْ يَهْطُلُ الْمَطَرُ فَعْلَا، اندفَعَتْ قَطْرَاتُ الْمَطَرِ الْأُولَى الْثَقِيلَةُ فَوْقَ أُورَاقِ الشَّجَرِ وَكَانَهَا طَلَقَاتٌ رَصَاصٌ صَغِيرَةٌ. فَقَطْ بَعْدَ عَدَةِ مِئَاتِ مِنَ الْأَمْتَارِ وَفِي الْمَنْحَدِرِ، ضَرَبَ الْبَرْقُ شَجَرَةً بِقُوَّةٍ، مُحَدِّثًا ضَجَّةً شَدِيدَةً. وَالْآنَ هَطَلَ الْمَطَرُ، وَكَانَ الْفَيُومُ قَذَفَتْ كُلَّ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ مَاءٍ فِي ثَانِيَةٍ وَاحِدَةٍ!

رِيحٌ صَاحِبَةٌ عَصَفَتْ بُذُرِيِّ الْأَشْجَارِ، وَقَذَفَتْ ثَالِتَرَ وَأَبَاهَ بِالْمَطَرِ فِي وُجُوهِهِمَا، الْمَاءُ الْبَارِدُ شَيْءٌ جَمِيلٌ، أَلِيسْ كَذَلِكَ يَا أَبِي؟ إِنَّهُ يُنْعِشُ الرُّوحَ، وَيُمْنَعُ الطَّاقَةَ، فَلَمْ نُطْلَقْ، وَنَشَدْ أَزْرَنَا، وَنَشَحَذْ عَزِيمَتَا، كَمَا عَلِمْتِي دَائِمًا، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ صَلَبَاً: هِيَا، يَا حَصَانِي الصَّفِيرِ، ارْكَضْ، ارْكَضْ. أَخْرَجَ ثَالِتَرَ لِسَانَهُ وَامْتَصَ قَطْرَاتِ الْمَيَاهِ عَبْرِ الشَّفَاهِ، قَمِيصِهِ وَبِنْطَالَهِ صَارَا مَبْلَلِيْنِ بِالْمَاءِ،

إنه يستمتع بالبرودة، ومضات البرق جعلته منفعلاً، وبدأ يصرخ في الرعد، محاولاً حجب صوته، والابن المعاك كان مازال يقف شبه منتصب، بركتين مضمومتين، وقد تشبث بيده في جذع شجرة الشرد، وبالأخرى استند على عصاه، لو يراه فقط سائق سيارة، من السيارات التي تمر!

شعر بقطرة الماء الأولى على يده، وغمر المكان برقٌ بضوء أزرق وهّاج. ضربات الرعد القوية التي تلت ذلك البرق مباشرة أصابته بالفزع، حتى إن عضلاته توتّرت وبدأت في الارتعاش، الريح القوية قذفت ماء المطر الثقيل في كل اتجاه، وفي لمح البصر صار مبللاً بالماء تماماً، بدأ مرة أخرى في الصياح، وفي أثناء ذلك مررت عدة سيارات مسرعة أمام البيت.

يجب أن ينتبه أي شخص لوجوده. صرخ بكل ما استطاع من قوة، وفجأة رأى خلال المطر المنهمر الثقيل، رأى نوراً لكسافياً ضوء كبيرين، وفي ذات الوقت سمع صوت محرك ماكينة حصاد، تقترب منه في المنحنى. لم يعد قادراً على الوقوف على قدميه، وتشنجت عضلات ساقيه مسببة له الألم، اقتربت ماكينة الحصاد، وفي ضوئها رأى قطرات المطر تقفز فوق الإسفلت، كانت تلمع مثل اللؤلؤ، لقد كانت كرات ثلج صغيرة، وبالفعل مسَّ نوز كشاف الضوء الأول مكان الكراج، كانت الماكينة العملاقة أعرض من نصف الشارع، لذا كان يرافقها جرار في المقدمة بكشافات تحذير توّمض وميضاً متقطعاً. حاول أن يقف مستقيماً، وتشبث أصابعه بكل قوة بفروع الشجر؛ إنها الآن فرصته، لأنهما يسيران ببطء، والمكان أصبح مضاء بالكامل من خلال كشافات الضوء الكبيرة، كان يجب أن يروه!

في هذه اللحظة اندلع برق قوي مرة أخرى، وليبرهه قصيرة أصبح كل شيء ساطعاً، ثم تلت البرق فرقة عنيفة، والأخ المعاك أصيب بالفزع بشدة، اضطر معها لترك فروع الشجر، وقد توازنه، وانهار ببطء على الأرض، وسقط في عرض الشارع على الإسفلت، حيث شعرت يداه بكرات الثلج الصغيرة الباردة، وهنا رأه سائق ماكينة الحصاد فجأة، فأوقف مركبته، وأعطى إشارة إلى سائق الجرار، بعدها نزل من كابينة القيادة، وكانت كرات الثلج الصغيرة تقفز مرتدة فوق صفيح الماكينة المعدني، متاثرة في كل جانب، ترك السائق درجات السلالم الأخيرة في الماكينة وقفز فوق الإسفلت المغطى بكرات الثلج البيضاء، واتجه مع سائق الجرار إلى ابن الأصفر المعاك الراقد على الأرض، وسأله ماذا حدث؟

بعدها حاول الرجلان رفعه إلى أعلى، ولم يكن هذا شيئاً سهلاً، لأنهما لم يعتادا التعامل مع المعاقين، بذلا قصارى جهدهما، وكانا شديدي الحرص، يتعاملان معه مثل بيضة نيئة، لم يعرفا من أين ينبغي الإمساك به، وفي النهاية قاما بحمله مثل مصاب بجروح خطيرة إلى الدرجات الأخيرة من السلالم، وسؤاله: لماذا لم تتصل هاتفيما بالنجدة؟ وعندما سمعا بما حدث قاما أحدهما بالاتصال من تليفونه المحمول بالإسعاف على الفور، قبل أن يتجها إلى مكان الأم داخل البيت. ظلّ سائق الجرار جالساً على الأرض بجانب ابن فوق الدرجة الأخيرة من السلالم، ووضع سترته فوق كتفيه ليحميه من المطر، وهمس قائلاً: سوف يصير كل شيء على ما يرام. في هذه اللحظة عاد سائق ماكينة الحصاد، وقال بصوت خافت لزميله، إنه لم يجد

أي عالمة للحياة، ولكنه لا يستطيع أن يجزم بذلك بالضبط، فهو في النهاية ليس متخصصاً، الطبيب وحده هو الذي يستطيع أن يقرر ذلك.

سمع ابن المعاقد هذه الكلمات، وبدت وكأنها لا تخصه، ولبرهة قصيرة ظل الرجال الثلاثة في حالة تردد.. قال سائق الجرار: يجب أن نحمله إلى داخل المنزل، لكن علينا أولاً أن نقوم بركن ماكينة الحصاد إلى جانب الشارع، لأنها تعيق حركة المرور، سنعود حالاً. نظر الأخ الأصغر إلى يديه المجرورتين، وإلى الدم، الذي يقطر منها سريعاً وممزوجاً بالماء فوق جلده وساقطاً على الأرض. يبدو أن الأم قد ماتت بالفعل، قال في نفسه، لكنها كانت قد نادته، ربما كانت تلك هي صرخة الموت؟ أم يبدو أنه كان مخطئاً؟ لم تعد السماء تمطر كرات ثلج، لكن الأمطار مازالت تهطل بغزارة، عاد الرجالان وقاما بمساعدته للوقوف على ساقيه، أحدهما أمسكه من تحت إبطيه والآخر أمسكه من قدميه، وبعد عدة محاولات نجحا في أن يقف بجانب السور. لو استطعتما أخذ يدي اليمنى فسأكون في الوضع الذي يسمح لي بأن أمشي، من فضلكما، ليس بسرعة، وبخاصة فوق الدرج، فأنا يلزمني بعض الوقت، حتى أقوم برفع القدمين. كلا، أنا لست في الحقيقة مشلولاً، أنا أعاني من الاضطراب الحركي، نعم منذ ولادي، كلا، وإنما كنت في حاجة للمساعدة، يكفي لو أمسكت يدي بقوة كي أستطيع أن أستند.

ها هو برق آخر يندلع، بعده مباشرة ضرب الرعد، والأخ الأصغر ينهر ويسقط على ركبتيه، والرجلان يحاولان مساعدته، والآن قاما بإسناده أيضاً من الخلف، لكن ذلك يقيده ويسلب

حريته الضرورية في الحركة، لم يسمعا ما قاله لها بالمرة، وكانا مدفوعين برغبتهما في المساعدة. ومرة أخرى ضرب الرعد بقوة، وهنا قال سائق ماكينة الحصاد، يحتمل أن يكون هذا البرق قد ضرب بركة الماء القريبة. وانزلق الابن المعاقد من فوق سلالم الدرج المبللة إلى أسفل، لكن سائق الجرار قام بمسك يده ورفعه عالياً. لا يمكن أن نستمر هكذا، علينا حمله. لا، اتركاني، قال الأخ الأصغر الذي استند الآن ثانية على السور، لو في إمكانني أن أهدا لحظة واحدة، لتمكنني من التحرك وحدي.

كانت الأم قد ماتت، كانت ممددة على سريرها، آمل أن يكون الرجل قد قام بتغطيتها، لقد كان يخشى من رؤية الأم الميتة، ومرة أخرى ضرب الرعد بعنف، نحن نوجد في مركز العاصفة الرعدية، قال سائق ماكينة الحصاد، والابن الأصغر كان يشعر مع الوقت بالتوتر الشديد، وكيف أنه أصبح عاجزاً عن تحريك قدميه، وكيف أنه يندفع واقعاً على ركبتيه.

إلى الأمام، كان الأب يصبح في الماضي في مثل هذه المواقف، إلى الأمام، تمسك! لكن الآن لم يعد هناك من يحفزه ويشجعه، وكان الرجلان قد وقفوا في حالة عجز تامة من حوله.

وهنا قرر سائق ماكينة الحصاد الإمساك بالابن من تحت ذراعيه، في حين قبض الآخر على قدميه وحملاه معاً إلى داخل المنزل. والآن بدأ فالتر رغم المطر في الصعود الأخير، كان عليه أن يتحنى بعض الشيء إلى الأمام، كيلا يفقد توازنه. وبحذر كان يضع قدماً قبل الأخرى كيلا ينزلق، لكن الأب الجالس فوق ظهر الابن المنحني، لم يهدأ وأصبح عصبياً، وتارجح بكل جسده هنا وهناك، ولوح بذراعيه في الهواء. هل تستطيع أن تتوقف؟ إن

الأمر خطير، فالطريق يتوجه بنا إلى الأعلى بشكل حاد. بفضل ومضات البرق المتتالية، والتي أضاءت المكان لجزء من الثانية، استطاع ثالتر أن يوجّه نفسه إلى الطريق الصحيح. لن نستسلم، صرخ في أبيه، من يبدأ الطريق عليه أن يكمله، لقد تعلمت ذلك منك مبكراً، فقط لا تتعال بالتعب، أمسك نفسك جيداً، الرأس للأسف، وهيا بنا!

سائق ماكينة الحصاد وزميله كانا يريدان وضع الابن الأصغر المعاو على كرسيه المتحرك بجانب المدخل، لكن عضلات جسده تشنجت، ولم يتمكنا من وضعه على الكرسي. وقف صلباً كلوح من خشب بين الرجلين وكأنه منوم مغناطيسيًا، والرجلان صارا مرة أخرى متزددين، هل ينبغي عليهم وضعه على الأرض؟ إنه يريد بالتأكيد الاتجاه إلى غرفة أمه، أجل، وبكل سرور، أجابهما بأدب عندما سألاه.

في الحقيقة، لم يرد هو ذلك، لقد كان خائفاً، وقلقاً من لقاء الأم، كان الموت يبدو بالنسبة له وكأنه مرضٌ معدٌ. هل ينبغي حملك ووضعك على السرير؟ لكن جسده ظل كلوح خشب، لم يزل غير قادر على الحركة. ربما يجب أن نضعك بجانب الأم على الأرض؟ ولكن هذا لا يصح، قال سائق الجرار متذمراً، إنه شيء مهين بالنسبة للشاب. كان جسد الابن الصلب ثقيلاً على الرجلين القويين، وبقيا برهة قصيرة متزددين، بعدها قاما بحمله ووضعه بجانب الأم على السرير العريض. جامداً، رقد الابن الأصغر بجانب الجسد الميت، كان حريضاً على ألا يلمس الأم، على ألا ينظر إليها، وثبتت عينيه في سقف الغرفة. الآن ستأتي الإسعاف بالتأكيد، ربما وصلت بالفعل، سأذهب للاطمئنان.

سائق الجرار كان يعتقد أنه ينبغي جسّ نبض الأم مرة أخرى، أنا أرى أنه لم تعد هناك أي حركة في جسدها، يؤسفني، أنا لاأشعر بشيء، ولكن كما قلت: أنا لست طبيبا.

هكذا، قال الابن الأصغر، والذي مازال متثناً نظراته في سقف الغرفة، لم يعد هناك نبض، وضرب الرعد مرّة أخرى، وكان قذيفة مدفعة ضربت الحديقة، والابن الأصغر جفل فجأة وبدأ في الارتعاش، ونظر الرجلان لبعضهما في حيرة مرّة أخرى، لكن الشاب الذي كان اصطكاك أسنانه مسموعاً، حاول تهدئتهما: لا بأس، لقد حدث لي ذلك قبل الآن، لكنه منذ زمن طويل على أي حال. عندما كنت صغيراً، كنت في الثانية أو الثالثة من العمر، كما حكوا لي فيما بعد، أيقظني قصف رعد رهيب، وبدأت أيضاً في الارتعاش، ولم يعرف الوالدان كيف يمكن مساعدتي، وقاما بضمّي، ومسحا بيدي فوق رأسي وطمأناني، ولكن الطبيب الذي كان قد وصل، رأى أن الوضع ليس سيئاً، وسيزول مع مرور الوقت.

عليكم ألا تتزعجاً، قال الابن متلعثما للرجلين. لكن انتفاضه وارتعاشه زاد حدة، وارتّج جسده بقوة بجانب جسد الأم الهايد، حتى اهتز السرير كله بشدة، وبدأت أيضاً جثة الأم على الفراش في التأرجح. إنه يعاني من صدمة، هنا صرخ سائق الجرار، إن هذا شيء خطير، قلبه يمكن أن يصاب بالإجهاد! ربما ينبغي علينا أن نضع فوطة مبللة فوق جبينه. الآخر جلس بجانبه، ووضع يده مهدئاً فوق صدره المرتعش. عاد سائق الجرار بقطعة قماش مبللة من غرفة الحمام ووضعها فوق جبين الشاب. هكذا ستحس بالراحة حالاً، والآن صار سماع صفارات إنذار سيارة

الإسعاف المقترنة ممكنا، لقد استغرق ذلك وقتا طويلا، قال سائق ماكينة الحصاد لرجال الإسعاف والطبيب، أعتقد أنه لم يعد هناك شيء يمكن عمله للمرأة العجوز، من الأفضل الاهتمام بالابن، إنه يعاني من نوبة تشنج، لم أر مثل هذا في حياتي أبداً! كان ثالتر يلهث من التعب، وتوقف لحظة قصيرة كي يسترد أنفاسه، وفجأة سمع رنين هاتفه النقال؛ إنها مارا! ظن ذلك في سعادة، وأخرج الجهاز من جيب البنطال، لكنها لم تكن مارا، بل كان سائق ماكينة الحصاد، وقد قام بوصف الأحداث له بكلمات غير واضحة، لم يفهم ثالتر عن أي شيء يتكلم، وكان عليه الاستفسار منه. لا تقلق بشأن نوبة التشنج التي أصابت أخاك، نعم، الإسعاف أيضا هنا، والموقف تحت السيطرة، إنه يعاني من صدمة بسبب الموت المفاجئ للأم. مادا؟ صاح الابن الأكبر، من الذي مات؟! وفجأة غنى الأب أغنية «اقفز، اقفز، أيها الفارس»، وبدأ في التحرك إلى الأمام وإلى الخلف، من الذي مات؟! سأل ثالتر مرة أخرى، الأم؟ مازال الأب يتارجح هنا وهناك وبحركة أسرع، وبدأ يصبح بصوت أعلى: اقفز، اقفز، أيها الفارس. هذه المرة فقد ثالتر توازنه، وسقط إلى الخلف، على ظهره، على أبيه، وعند الاصطدام شعر ثالتر بجسد أبيه النحيل، بعظامه. وانزلقا معا عدة أمتار بشكل حاد إلى الأسفل، في الممر الزلق المنحدر. قال ثالتر في نفسه أشاء السقوط كان عليّ أن أسير في الطريق الآخر. بقيا راقدين في الأسفل عند الجرف المنحدر بجانب سياج الأبقار، وأضاء برق قوي المنحدر، ورأى ثالتر، أنهما قد سقطا بين بقرتين، ثالتر نفسه لم يشعر بأي ألم، وكان يأمل ألا يكون قد حدث للأب شيء، فقد كانت السقطة

قوية بالفعل. نهض ثالتر وقام بنداء أبيه، لكن الأخير لم يردّ، أيضاً عندما قام بهز ساقَيَ الأَب، ظلَّ الأَب خاماً، وتراحت يداه إلى أسفل. أبي! صرخ ثالتر، أبي! قام بعدها بفك حزام حقيبة الظهر، وأنزلَ الأَب من فوق ظهره، وحاول وضعه بحرص على الأرض، لكنَّ الأَب كان منهاراً ولم يظهر أي علامة من علامات الحياة، لقد كسرَ عنقه عند السقوط على الأرض!.. وبينما يغلق ثالتر عينَيَ الأَب، أحسَّ بأنفاس دافئة في رقبته، ونفخة عالية الصوت، وإذا به يلتفت إلى الوراء، فرأى رأساً داكناً كبيراً لبقرة متطفلة، واشتم الرائحة الحادة لجلدها المبلل، والآن فقط سمع صوت سائق ماكينة الحصاد قادماً من التليفون النقال المُلقى بجانبه على الأرض: مرحباً؟ هل كل شيء على ما يرام؟

قام ثالتر بالرد، وسأله عن حال أخيه، وأخبره بأنه ينبغي عدم نقله إلى المستشفى، وعلى الطبيب أن يحقنه بحقنة مهدئه، وسوف يهدأ. أنا سوف أحضر على وجه السرعة، أعتقد في غضون ساعة سأصل للبيت..

أوقف تشغيل هاتقه النقال، وأعاده إلى جيب البنطال. يجب أن أذهب إلى أخي، لا أستطيع أن أتركه وحده مع الأم الميتة، وبحذر رفع جسد أبيه الميت، لم يكن الأمر سهلاً، فسرعان ما كانت الجثة تسقط إلى الأمام، وأخيراً تمكّن من الدخول في أحزمة حقيبة الظهر، واستطاع النهوض، كي يهبط بأبيه وهو فوق ظهره من هذا المنحدر.

وأثناء ذلك صار مُحاطاً بكثير من الأبقار، سمع أنفاسها، وأحس بخارها الدافئ، لكنها تركته يمشي دون تدخل، فقط عندما خرج من دائرتها، بدأ حيوان منها في الخوار. لماذا قمت

بالتصرف بهذا الشكل الآخر؟ صاح ثالتر في أبيه الميت،
لماذا لم تسمعني؟ لقد أفسد أسلوبك العنيد البغيض كل شيء،
أنت نفسك المسؤول عن موتك، فقد كان من الممكن تجنب هذا
السقوط، والآن أدرك ثالتر أنه لم يفقد أباه فقط، ولكنه فقد
أمه أيضاً، وغامت عيناه بالدموع، ثم بدأ يشهق بصوت مرتفع.

انتهت

الترجم في المسرح

د. عبد الحميد حسين

- من مواليد صعيد مصر عام 1958.
- حاصل على لسانس الآداب - قسم الدراسات اليونانية واللاتينية - جامعة القاهرة 1980.
- حاصل على ماجستير الفلسفة في علوم المسرح بجامعة فيينا - النمسا 1987.
- حاصل على دكتوراه الفلسفة في علوم المسرح بجامعة فيينا - النمسا 1991.
- لديه العديد من الترجمات من اللغة الألمانية في المسرحيات والقصص القصيرة والمسرح الألماني.
- نشر كتاب «الأسطورة اليونانية في المسرح العربي المعاصر» باللغة الألمانية في ألمانيا 2004.
- له ديواناً شعر الأول «كتابة على جدار الصمت» - القاهرة 1982، والثاني «أهمية أن تكون حزيناً» - تونس 2003.

أ.د. أسامة أبو طالب

- كاتب مصرى.
- حاصل على دكتوراه في علوم المسرح من جامعة فيينا.
- تولى العديد من المناصب الشرفية؛ منها عضوية المجلس الأعلى للثقافة - مصر من عام 2000 إلى 2005.
- له عدد من المؤلفات باللغة العربية منها: البطل التراجيدي مسلما 2012.
- له العديد من الترجمات من اللغة الألمانية؛ منها نصوص من المسرح الألماني المعاصر 2002.
- ألقى عدداً من المحاضرات باللغتين الألمانية والعربية أهمها: نحو خارطة ثقافية لمصر في المركز الثقافي المصري في فيينا.
- كتب العديد من الدواوين الشعرية من أهمها: الوقوف على أطلال طيبة، ولا أبكى ولا أضحك.
- قام بإعداد وتقديم عدد من البرامج الأدبية والفنية بالتلذذيون والإذاعة منها: مسرح أبو الفنون بقناة التغذير المصرية.
- كتب عدة سيناريوهات سينمائية وتلفزيونية منها: الاحتياط واجب.. فيلم روائي 1982.
- له الكثير من الكتابات الصحفية؛ منها مقال أسبوعي كل يوم أحد بجريدة «الوفد» من 2011 - 2012.
- قام بتأسيس عدد من الدورات والورش التدريبية في فنون العرض.



يورج أكلين

كاتب وروائي سويسري معاصر..
ولد في 20 فبراير 1945.. في
مدينة زيورخ بسويسرا. وحاصل
على الدكتوراه في علم الاجتماع
عام 1974 من جامعة برن
بألمانيا.

من أهم مؤلفاته روايات «رجل
الكافغرو»، «أغنية الضفدع»،
«الثقة شيء طيب»، و«الأب».
حصل على عدد من الجوائز الأدبية
في ألمانيا وسويسرا. منها جائزة
تسوليكر للفن عن مجمل
أعماله الأدبية وجائزة مدينة زيورخ
للكتاب.

الأب

تعتبر رواية «الأب» للروائي السويسري المعاصر يورج أكلين تسوية حساب الابن مع أبيه عبر رحلة في ذاكرة الابن، والذي يقوم بدراسة عائلية بعين محلل نفسي. تطرح الرواية - التي لا تخلو من ملامح السيرة الذاتية - العلاقة بين الأب والابن وموضوع الشيخوخة والمرض والعجز، ويعبر المؤلف بشكل مؤثر وقاس وبأسلوب ساخر ولغة تميل إلى لغة كتاب مسرح العبث، عن قضايا إنسانية واقعية خطيرة. يعاني منها المجتمع الأوروبي المعاصر، منها قضية التصالح مع الذات، ومواجهة الماضي وتعریته دون مواربة، وكذلك محاولة التغلب عليه.

يكتب أكلين نثراً موجعاً، يتميز بالجرأة الشديدة، ويقترب من نفسية الابن، ويتوغل فيها. وليس هذا بغريب عن المؤلف الذي يعمل محللاً نفسانياً وله عيادة لتحليل النفي في مدينة زيورخ.

إنه يقدم نموذجاً مغايراً للعلاقة بين الأب والابن، يرى فيه القارئ صورة الأب كطاغية مستبد.

تأثير «كافكا» واضح في الرواية، كذلك «إبسن» و«ستريندبرج». وهناك وصف مكثف ودقيق لسلوك الشخصيات القليلة في الرواية.

وتختلف التقنية السردية في رواية «الأب» عن الشكل المألوف للرواية من حيث وجود حبكة وبداية ونهاية. أحداث الرواية تدور في يوم واحد، وتنتمي إلى التيار المعروف في الرواية الحديثة باسم تيار الوعي.